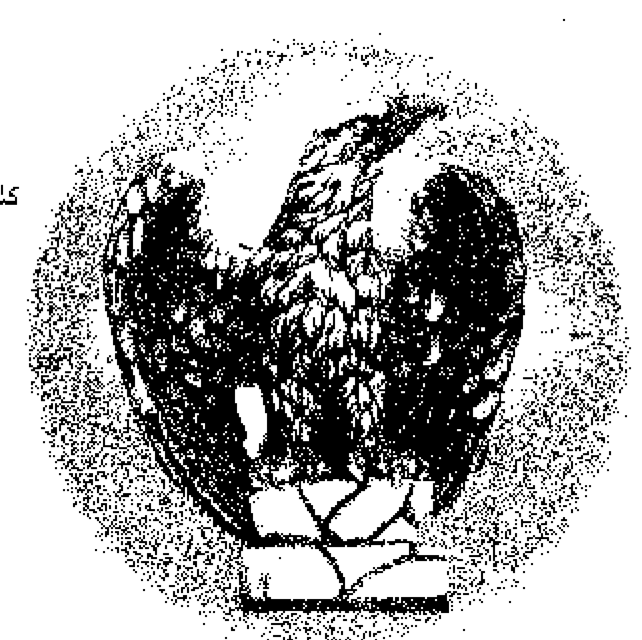


المسلمون ودولة الروم

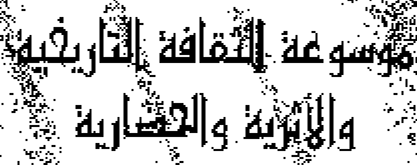
تأليف
أ.د. طارق منصور
كلية الآداب - جامعة عين شمس



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٢٧٥٢٧٣٥
١٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٢٢٣٩٤٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



قصر الحكم البيزنطي في روفينا - إيطاليا



الإشراف العام
محيي الدين فتحي الشلودي

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
منى حامد عمارة

٩٣٧,٠٦ طارق منصور.

ط ا د و المسلمون ودولة الروم/ تأليف طارق منصور. ـ القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٨م.

أ-د ١٠٤ ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الوسيط؛ ١٠).

ببليوجرافية: ص١٠٢ - ١٠٤.

تدمك: ٠ - ٢١٢٣ - ١٠ - ٩٧٧.

١ - الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام. ٢- دولة الروم قبل ظهور الإسلام. ٣- دولة الروم والدولة الإسلامية. أ- العنوان. ب- السلسلة.

دار الفكر العربي

رقم الإيداع: ٨٣٦٨ / ٢٠٠٦.

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردي بالعاشر من رمضان



تقديم السلسلة

التاريخ علم من أجلّ العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا وأكثرها فائدة. ويتطلب علم التاريخ فيمن يمارسه التحلي بأمانة الحكم وصدق الكلمة وبُعد النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضي لمواجهة صعاب الحاضر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

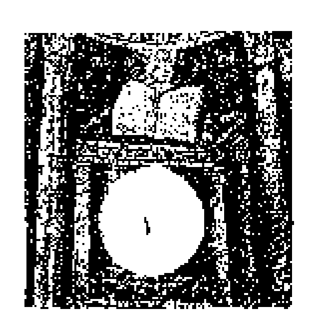
إن الروايات التاريخية قد تتشابه في بعض أجزائها على مدى الدهور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدي ومشاعره النفسية وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم في تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها في الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ في صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحقيقة كثير من الهيئات الثقافية، فجعلوا للتاريخ حقه من الاهتمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه في مكانه اللائق.

وتأتي مؤسسة **دار الفكر العربي** التي أسسها الأستاذ/ **محمد محمود الخضري**، التي تنهض بدور ملموس في مجال خدمة الثقافة العربية. والتي وضعت مشروعا للثقافة التاريخية، واستعانت في التخطيط لهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخصصين داخل الجامعات العربية وخارجها. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفني والتصميمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التي تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التاريخية ليسعدها أن تقدم هذا الكتاب الذي يصدر عن **دار الفكر العربي** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق في خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

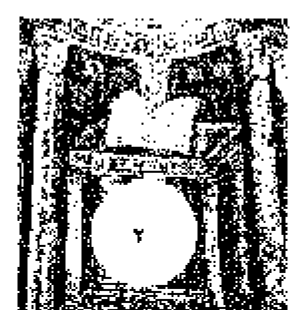




على مدى أحد عشر قرناً، هى عمر الإمبراطورية البيزنطية، أو دولة الروم كما أطلق عليها العرب، لم تر الأخيرة قوة مثل قوة المسلمين؛ الذين أثخنوا القسطنطينية بالجراح مراراً، حتى سال دم الروم فى نهاية المطاف على أيدى السلطان العثمانى محمد الفاتح عام ١٤٥٣م عندما دكت المدفعية التركية أسوارها، لتهوى الشخصية البيزنطية إلى الثرى، بعد أن عاشت فى عليين ما لا يقل عن ألف عام أو يزيد قليلاً.

لقد دشن الإمبراطور قسطنطين الأول عاصمته القسطنطينية فى عام ٣٣٠م لتكون "روما الجديدة"، وأحاطها بالأسوار والأبراج الشاهقة، التى كفلت لها الصمود فى وجه الغزاة، الذين جاءوها من كل حدب وصوب، وعادوا جميعاً بخفى حنين؛ ولم تفتح أبوابها إلا على أيدى الصليبيين عام ١٢٠٤م عنوة. وبرغم الحصانة الطبيعية والصناعية لتلك المدينة، وشهرتها الواسعة فى عالم العصور الوسطى، إلا أن المسلمين وجهوا جيوشهم شطر العاصمة البيزنطية، القسطنطينية، فى محاولات ثلاث لإسقاط هذه العاصمة، زمن الخلافة الأموية، إلا أن هذه الحملات فشلت جميعاً. ومنذ تلك اللحظة بدأ البيزنطيون يدركون أن المسلمين قد تخطوا مرحلة تهديد الأطراف البيزنطية، لاسيما بعد أن استولوا على بلاد الشام وفلسطين ومصر وإفريقية، وبدأوا فى السير نحو إسقاط القلب أو العاصمة البيزنطية ذاتها فى محاولة منهم لفتح بيزنطة كما سبق وفتحوا فارس من قبل، وقد قوّى هذا الشعور لدى البيزنطيين، إنشاء المسلمين لأساطيل إسلامية فى ترسانات بلاد الشام ومصر، استطاعوا بفضلها انتزاع السيادة البيزنطية على حوض البحر المتوسط، الأمر الذى دفع البيزنطيين إلى القيام بمحاولات يائسة لاسترداد السيادة الضائعة على البر والبحر، فقاموا بشن هجمات عدة على سواحل مصر وبلاد الشام، إلا أن معظمها باء بالفشل، ولم تفت فى عضد المسلمين، بل على العكس زادتهم حماسة وقوة لاستكمال حركة الفتح والجهاد ضد البيزنطيين.

وفى هذا العمل الفكرى المتواضع، الذى نقدمه للقارئ العربى والمثقف فى المقام الأول، وليس للأكاديميين المتخصصين فى تلك الحقبة التاريخية، نحاول رصد العلاقة بين القوتين العظميين فى العصور الوسطى قوة الدولة الإسلامية وقوة دولة الروم، أو الإمبراطورية البيزنطية



بالمفهوم الحديث. وقد آثرنا عدم حشو صفحات العمل بالهوامش الأكاديمية التي قد تثقل على القارئ العام، وحاولت قدر الإمكان تبسيط المعلومة التاريخية حتى يسهل على القارئ تصفح الكتاب في سهولة ويسر، دون الإخلال بالمعنى أو الحقيقة التاريخية.

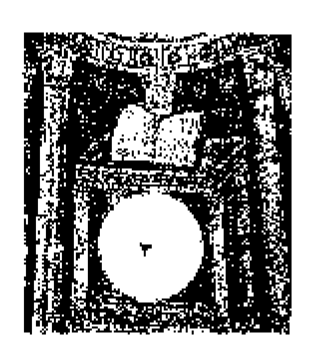
لقد حاول المؤلف بقدر الإمكان، وبأقل قدر من تفاصيل الأحداث، أن يقدم عرضا مبسطا لتاريخ العلاقات بين الروم والمسلمين، في الفترة منذ ظهور الإسلام وحتى انهيار الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، الذي سادت فيه روح الاستقلال في الولايات التابعة لبغداد، ثم شهدت فيه قيام خلافة أخرى شيعية بمصر وإفريقية، هي الخلافة الفاطمية؛ ويمكن القول أنه في تلك الفترة لعب الحمدانيون الدور الرئيسي في صد المد البيزنطي تجاه العالم الإسلامي، ولولاهم لتمكن الروم من استعادة بلاد الشام وفلسطين ثانية من أيدي المسلمين، في فترة تولى حكم بيزنطة فيها أباطرة أكفاء عرف عنهم البطولة والشجاعة أمثال نقفور فوقاس، ويوحنا تزيمسكس، وباسيل الثاني.

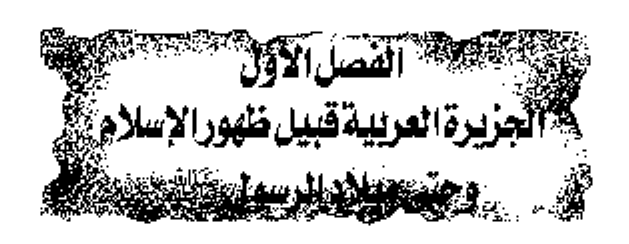
وفي الختام تبقى كلمة شكر إلى أستاذي المرحوم أ.د. رأفت عبد الحميد لثقته الغالية في واحد من أبنائه الباحثين وقيامه بتكليفي بهذا العمل، فله مني خالص الشكر والتقدير. كما أتقدم بخالص الشكر إلى القائمين على أمر إصدار هذه الموسوعة التاريخية بمؤسسة دار الفكر العربي، لتبنيهم هذا العمل الشاق وإصرارهم على إخراجه إلى النور عسى أن يفيد منه القراء والمثقفين من أبناء أمتنا العربية، فلهم كل الشكر والتقدير.

المؤلف

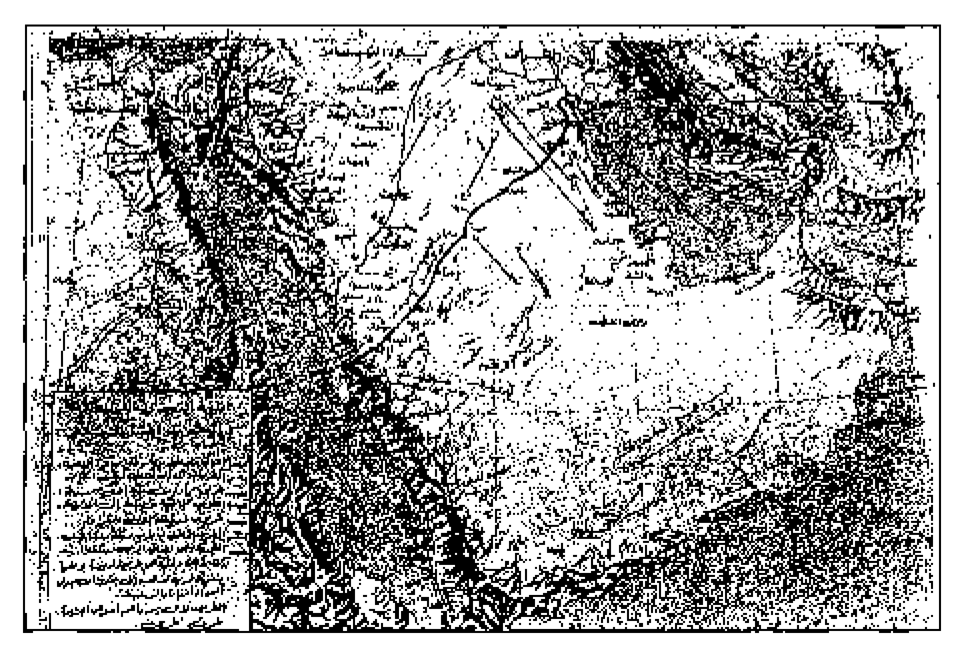
د. طارق منصور

مدينة نصر - القاهرة

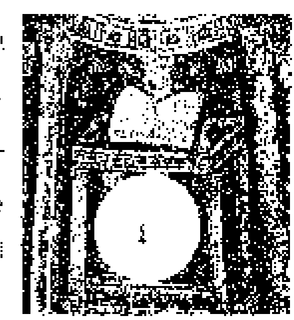




احتلت شبه الجزيرة العربية موقعا جغرافيا ممتازا جعلها مركزا للصراعات السياسية والدينية آنذاك، فهي تحيطها المياه من شرقها وغربها وجنوبها فضلا عن اتساع مساحتها، ولكن بالرغم من هذا فقد كانت شبه جزيرة صحراوية أو شبه صحراوية بمعنى أصح، فقد اعتمد سكانها على الأمطار التي نادرا ما تسقط هناك، لوقوعها في المنطقة المدارية شديدة الحرارة صيفا معتدلة شتاء. كذلك لم تنشط الحياة الزراعية هناك بعكس وادي النيل أو بلاد ما بين النهرين. كان لكل هذا أثره على سكان الجزيرة العربية فعمل البعض منهم بالتجارة، حيث كانت تخرج كل عام رحلتا الشتاء والصيف، أما الغالبية منهم فقد عملت بالرعي. كذلك لم يكن للعرب نوع من الحكومات المعروفة الآن، ولم يكن لهم قضاة نظاميون يحتكمون إليهم، بل كان الجميع يدين بالسلطان إلى زعيم



طرق التجارة في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام



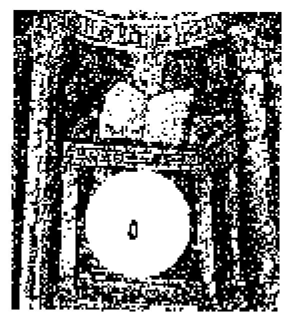
القبيلة، كذلك لم يكن لهم جيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية التي حاقت بهم مرارا، ولم يكلفوا أيضا بدفع الضرائب لعدم وجود حكومة تقبض على زمام السلطة التنفيذية وتضرب على أيدي المعتدي وتوقع عليه العقاب المتناسب مع جرمه وإنما كان واجبا على الشخص المعتدى عليه أن يثأر لنفسه بنفسه وعلى قبيلته أن تشد أزره.

وقد يسقط هذا الثأر عادة دفع المعتدي الجزية أو تعويضا مناسبا تقدره القبيلة المعتدى عليها. وكانت كل قبيلة تعتبر وحدة سياسية قائمة بذاتها لها كيانها المستقل؛ وكثيرا ما كانت تقوم المنازعات بين إحدى القبائل والأخرى أو تغير واحدة منها على الأخرى، فكان يخرج أفراد القبيلة الذكور حاملين أسلحتهم ليكونوا جيشا على قدر قبيلتهم، يهاجمون به القبيلة الأخرى ؛ وبعد عودتهم ينصرف كل فرد إلى عمله تاركا سلاحه قيد غارة أخرى. هكذا كانت الجيوش قائمة على العصبية القبلية آنذاك، وكانت معظم إغاراتهم إما بهدف الثأر أو النزاع على الكلأ والمرعى، التي كانت سببا في كثير من إغاراتهم على أراضي الروم. وقد صنعت القبائل من انتصاراتها ملاحم شعرية تغنى بها الشعراء آنذاك في الجاهلية، ومن أشهر تلك المعارك التي قامت بين العرب آنذاك يوم داحس والغبراء، وحرب البسوس، وأيام الفجار. وكان الأحرار من العرب يحاربون تحت إمرة سيدهم في وقت الحرب، أما في وقت السلم فقد كانت الأسرة هي الشيء الوحيد المنظم.

وقد أقامت القوى العظمى آنذاك ممالك عديدة لها في المنطقة كان أشهرها إمارتي الحيرة والغساسنة. الأولى أقامها الفرس، أما الثانية فأقامها الروم.

إمارة غسان :

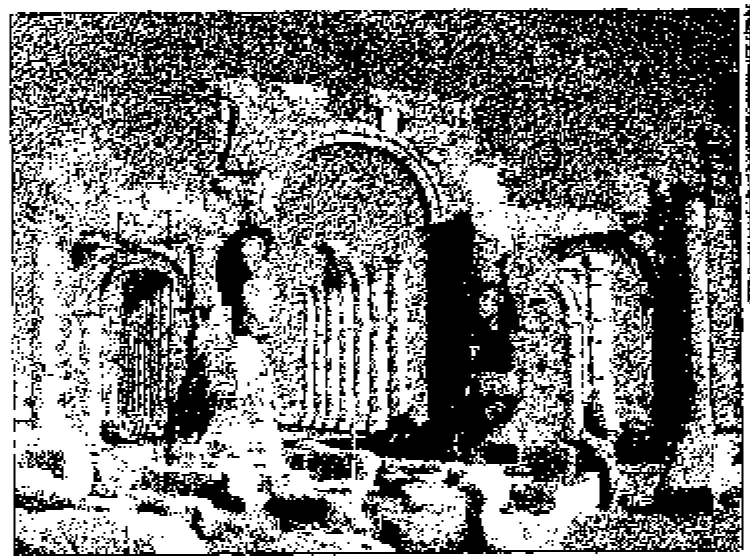
كان من نتيجة الصراع الذي نشب بين الفرس والبيزنطيين وكذلك إغارات العرب على أملاك الدولة البيزنطية، أن أقامت الدولة البيزنطية إمارة تابعة لها هي إمارة غسان؛ والتي يعود تاريخها إلى الفترة التي خرب القادة الرومان فيها مدينة تدمر في عهد الإمبراطور أورليانوس Aurelianus سنة ٢٠٢م وفوض الرومان أمورهم في هذه المناطق إلى الأمراء التنوخيين ثم إلى السليحيين الذين أزالت قبيلة غسان ملكهم عام ٢٩٩م. ولما كانت بلاد الشام تؤلف منطقة الحدود الجنوبية الشرقية في الإمبراطورية البيزنطية، كان على أباطرة الروم أن يهتموا بهذه المنطقة ويعطوها من عنايتهم النصيب الأوفر؛ ولذلك أغدقوا الأموال على بعض القبائل العربية حتى استطاعوا اتخاذهم صنائع لهم على تخوم البادية، يستعينون بهم في صد غارات البدو الذين كانوا يغزون المناطق المتحضرة وينهبونها.

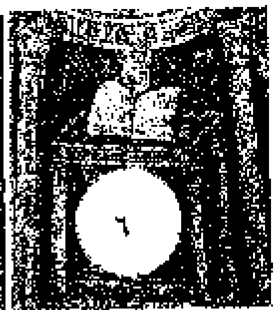


وكان قبيلة قضاعة أول من قدم من العرب في صحبة ملكهم مالك بن فهم بن تيم الله، وقيل أن الرومان قد ملكوا القضاعيين على من ببلاد الشام من العرب بعد أن دخلوا في النصرانية وأصبحوا صنائعهم، ولم يلبث أن انتقل الملك إلى بني سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وفي نفس الأونة تحركت قبائل الأزد اليمنية على أثر انهيار سد مأرب إلى شمال الجزيرة العربية فسار بطن منها إلى الشام وأقاموا على ماء هناك يقال له غسان، ولما نزلت غسان بجوار سليح فرضت عليهم الإتاوة وظل الغساسنة يؤدونها حتى قامت الحرب بينهم وانتصرت غسان في النهاية وانفردت بالسلطة دونها، ويقول الأصفهاني، "إن أول من ملك من غسان، جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء وكان الذي ملكه على عرب الشام ملكا يقال له نسطورس فلما ملك جفنة قتل ملوك قضاعة من سليح من الذين كانوا يدعون الضجاعمة ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم وبنى جلق والقرية وعدة مصانع".

وكان الحارث بن جبلة أول أمراء بني جفنة وأعظمهم شأنا بلا منازع وقد اختاره الإمبراطور جستنيان حوالي عام ٥٢٩م ليكون بجانبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة. وقد رفع جستنيان ٥٢٧-٥٦٥م الحارث إلى مرتبة الملوك وبسط سيادته على كثير من قبائل العرب بالشام حتى يقيم خصما قويا في وجه المنذر ملك الحيرة. ويستبعد أن يكون الحارث أو أحد خلفائه قد حمل رسميا لقب ملك لأن هذا اللقب كان خاصا بالإمبراطور البيزنطي وحده، كما أن الوثائق التي تمثل لغة الحكومة الرسمية أطلقت على الحارث وخلفائه لقب بطريق Patricus أو رئيس قبيلة Phalarch.


بقايا سد مأرب في اليمن



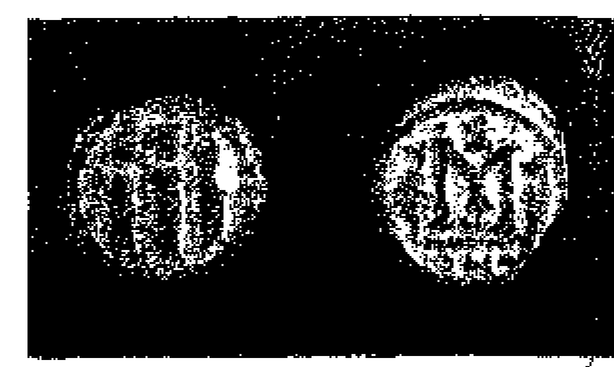


مدينة تدمر- قوس
الشارع الرئيسي



مدينة الرصافة في بادية سوريا

وحالف الغساسنة الروم محالفة الند للند ضد الفرس والعرب المغيرين على أطراف مملكتهم واشترطوا أن يمدوهم بثلاثين أو أربعين ألفاً إذا حاربهم العرب، وأن يمدوا الروم بعشرين ألفاً من المقاتلين إذا تحاربوا مع الفرس، ولقد شقت إمارة غسان عصا الطاعة مرات عديدة على الروم، حسب



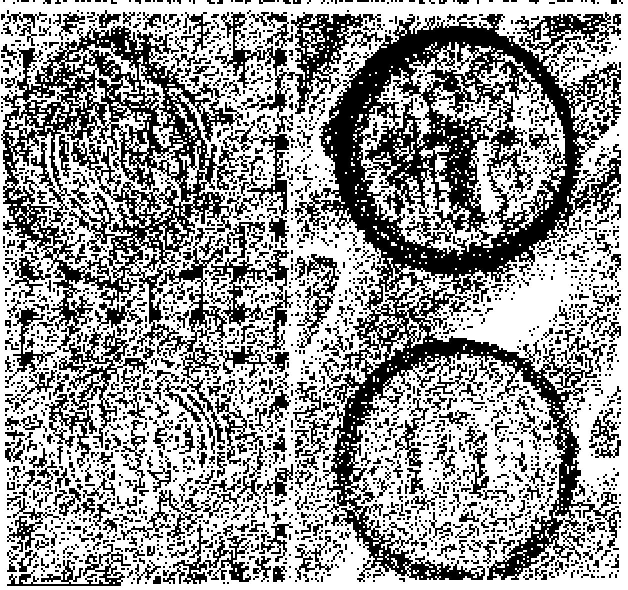
عملة هرقل كانت تداول في الشام في بداية ظهور الإسلام

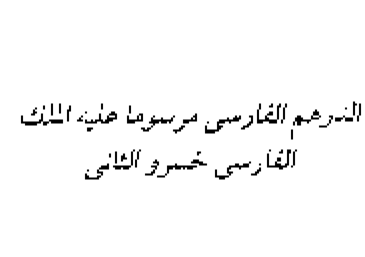


بقايا سور الطائف وأحد حصونه

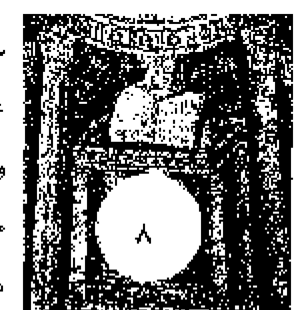
رواية يوحنا الإفسوسي، ولكن الظروف العامة آنذاك كانت تحتم عودتها ثانية لتسير في فلك أباطرة الروم. وقد وقف الغساسنة بجانب الروم في عهد الإمبراطور هرقل ٦١٠-٦٤١م في حروبهم ضد الدولة الإسلامية إلى أن فتحت أراضيهم وأسلم معظمهم. وهكذا انتهت إمارة غسان التي كانت خير حليف للدولة البيزنطية في بلاد الشام.

ونعود للحديث عن العرب وأحوالهم قبيل ظهور الإسلام ثانية بعد أن استعرضنا إمارة غسان، وهي الإمارة العربية التي حالفت الروم سنوات طوال. كان





الدرهم الفارسي مرسوما عليه الملك الفارسي خسرو الثاني

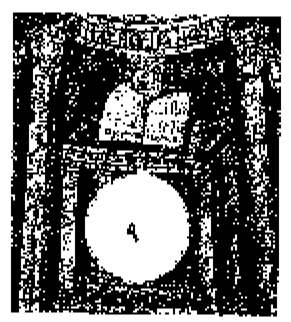


سكان الجزيرة العربية يعملون بالدرجة الأولى بالتجارة، التى مثلت عصب الحياة الاقتصادية هناك. فقد كانت الجزيرة العربية فقيرة المراعى والأرض الزراعية مما جعل سكانها يحترفون التجارة، وكانت قريش من أول القبائل العربية وأهمها، علاوة على ما لها من امتيازات فى مكة؛ وكانت القبائل هناك تقوم برحلتين تجاريتين فى العام هما رحلة الصيف ورحلة الشتاء. وقد عقدوا المعاهدات مع البيزنطيين والغساسنة لتنظيم التجارة معهم، وكانوا يتعاملون بالدرهم الفارسى والدينار البيزنطى. وليس عسيرا علينا أن نعرف فضل التجارة أيا كان نوعها فى نقل الحضارة من منطقة لأخرى ومساهمتها فى تطور الشعوب، مما جعل العرب فى شبه الجزيرة العربية يملكون قدرا من الحضارة الإنسانية.

لقد كان العرب ينظرون إلى دولة الروم على أنها واحدة من القوى العظمى التى لا يمكن قهرها، لما كان لها من حضارة عريقة وانتصارات عسكرية سجلها التاريخ، وكنيسة منفردة اجتمع حولها الشرق، لقد امتدت الحضارة البيزنطية إلى المناطق المتاخمة للدولة البيزنطية وخاصة بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية وهى ولايات تابعة لها. وكانت القسطنطينية هى العاصمة المركزية لها والتى كانت بالنسبة للعرب قلعة حصينة لا يجرؤ أحد ممن يقطنون جوارها أن يفكر فى اقتحام هذه العاصمة والنيل منها، وخاصة أن الأباطرة البيزنطيين أحسنوا اختيار موقعها، وتفوقوا فى تحصينها برا وبحرا.

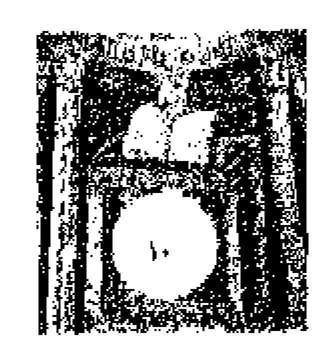
وكان البيزنطيون ينظرون إلى العرب نظرة دنيا، فقد رأوا فيهم مجرد بدو يغيرون على أراضيهم؛ لذا يجب إيقافهم عند حدهم. وكان انشغالهم الدائم أيضا بالصراع مع الفرس سببا فى عدم غض الطرف عن العرب القاطنين فى الجزيرة العربية، وقد بدا هذا فى اهتمامهم الملحوظ بالتجارة المارة عبر أراضى العرب، والتى انعكست بدورها فى صراعهم مع الفرس فى سبيل السيطرة عليها.

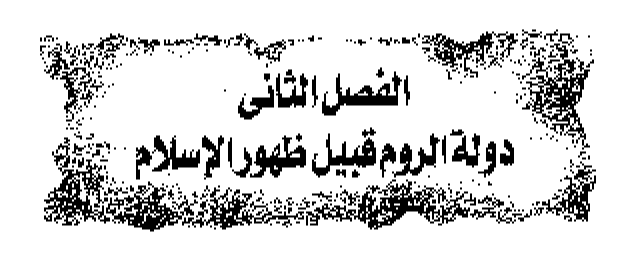
أما عن الحياة الدينية فى شبه الجزيرة العربية، فقد انتقلت عبادة الأصنام إليها عن طريق التجارة، وكانت الأصنام هى عبادة الدهماء العرب ومعظم سادتها؛ وهى ذات أشكال عديدة فمنها عبادة اللات، والعزى، وهبل، وكلها أصنام كان لهم فيها اعتقادات كبيرة ويتبركون بها. كذلك انتشرت اليهودية هناك قبل مجيء الإسلام ولاسيما فى اليمن كما انتشرت فى القرى وخيبر وتيماء



ويثرب حيث أقامت هناك العديد من القبائل اليهودية. ويذكر أحد المؤرخين أن هؤلاء اليهود كانوا من أهالي الجزيرة العربية ثم اعتنقوا اليهودية وكانوا شديدي التمسك بدينهم بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن اليهود العرب نزحوا إلى فلسطين حيث نشروا تعاليم التوراة أينما حلوا.

وانتشرت أيضا المسيحية هناك في قبائل تغلب وغسان وقضاعة شمال الجزيرة العربية وفي بلاد اليمن، وكانت على مذهبي النسطورية، واليعقوبية، وكانت أهم مراكز النصرانية في بلاد العرب نجران حيث يعمل أهلها بالزراعة والصناعات الحريرية والتجارة. هذا علاوة على انتشار بعض الديانات والمعتقدات الأخرى كالمجوسية والصبئية وعبادة الأشجار والحيوان وكلها عبادات فارسية الأصل.



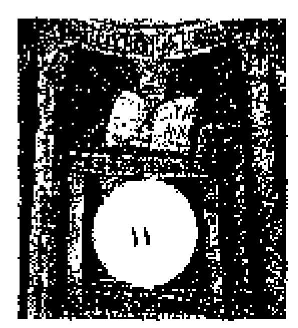


الفصل الثانى
دولة الروم قبيل ظهور الإسلام

كانت الإمبراطورية البيزنطية بالنسبة للعرب أيا كانت أجناسهم ومنذ قديم الأزل الحصن المنيع الذى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه؛ لذا كان الجميع ينظرون إليه برهبة خاصة، وأمل فى الدخول إلى أراضيها فاتحين منتصرين.

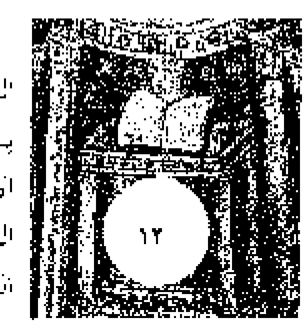
لقد كانت الإمبراطورية البيزنطية منهكة القوى وئيدة الحركة خاوية الوفاض قرابة نهاية القرن السادس الميلادى وصاحب هذا اعتلاء هرقل عرشها الإمبراطوري سنة ٦١٠م ويرجع هذا لعدة أسباب منها القريب ومنها البعيد. أما عن السبب القريب فيتمثل فى الثورة من أجل الحكم الإمبراطورى وما صاحبه من فوضى، فقد كان يحلو للبعض أن يخطط ويدبر ويتحين الفرصة ليقوم بانقلاب على الحكم يسانده فيه بعض أعوانه ورفاقه ثم سرعان ما يستأثر بالسلطة نفسه بعد ذلك ويعمل من أجل مصالحه الشخصية، وخير مثال لنا فوقاس Phocas ٦٠٢-٦١٠م الذى نادى

كنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية (مسجد السلطان محمد الفاتح الآن باستنبول)



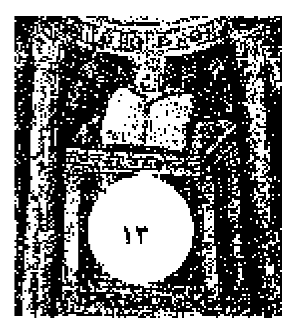
به الجيش إمبراطورا بعد أن استاء الجنود من بعض التغييرات التى أدخلها الإمبراطور موريس Maurice ٥٨٢-٦٠٢م على النظام المالى فى الجيش فما كان منهم إلا أن هبوا ثائرين على الإمبراطور موريس وانتهى الأمر باغتياله وتلا هذا تتويج ضابط شاب من بينهم يدعى فوقاس Phocas الذى استبد بالإمبراطورية وراعى مصالحه الشخصية قبل مصالح شعبه وزاد الطين بلة الكوارث التى حلت بالإمبراطورية فى عهده، والتى كان من المفروض أن يتخلص منها ويجد مخرجا للإمبراطورية منها. لقد بلغ الإمبراطور فوقاس ٦٠٢ - ٦١٠م درجة من سوء الأخلاق، جعلت المؤرخين البيزنطيين يطلقون عليه صفة الطاغية، فقد سخر البلاد لصالحه، واغتصب النساء والفتيات العذارى دون رحمة، حتى لم يعد الشعب البيزنطى قادرا على تحمله. أما على الصعيد الخارجي فقد بدأ الفرس يطالبون بالثأر لمقتل الإمبراطور موريس، صديقهم، وبدأوا يعدون العدة لغزو الأراضي البيزنطية. إزاء كل هذه الأحداث قرر السناتو فى القسطنطينية أن يرسل رسالة إلى هرقل حاكم ولاية أفريقية البيزنطية كى يهب ويحشد قواته ويأتى لنجدة البلاد من براثن فوقاس البغيض.

الإمبراطور /جستنيان/ ٥٢٧ - ٥٦٥م يتوسط حاشيته فسيفساء
من كنيسة سان ڤيتال- رافنا



وقد قرر هرقل الأب أن يهب لنجدة البلاد ملبيا طلب رجال السناتو، حيث أرسل ابنه وسميه هرقل إلى القسطنطينية واستطاع أن يستولي على زمام الأمور هناك، حيث توج إمبراطورا على الإمبراطورية البيزنطية بعد مقتل فوقاس. كان هذا هو السبب القريب الذي ساهم في تقييد حركة الإمبراطورية بعض الشيء وجعلها منهكة القوى وئيدة الحركة مبلبلة الفكر. أما السبب البعيد فهو يرجع إلى عصر الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ – ٥٦٥م الذي تملكته النزعة الرومانية القديمة في توحيد شطري الإمبراطورية الغربي والشرقي، وأن يجعل من نفسه إمبراطورا رومانيا. فقام بشن سلسلة من الحروب التي لم تنقطع طوال فترة حكمه للإمبراطورية فتارة يعقد صلحا مع الفرس ويتوجه إلى الغرب اللاتيني ليخضعه لحكمه وتارة يتجه لمحاربة الهراطقة الأريوسيين ليكسب السلطة الدينية أيضا ويضع البابوات في صفه وليعبأ نفوذهم وقواهم من أجل مشاريعه الطموحة التي جنت على الإمبراطورية الدمار والخراب من بعده إلى أن جاء هرقل سنة ٦١٠م. وأبسط شيء لهذا هي تلك الخزانة الخاوية التي لم يستطع أحد الأباطرة من بعده أن يعيد إليها شبابها وحيويتها، ومثال آخر متمثل في المدن التي قضى عليها وعلى أهميتها والتي كان من الممكن أن يستفاد منها لصالح الإمبراطورية مثل روما Roma ورافنا Ravenna وغيرها من المدن الإيطالية. بل عادت الإمبراطورية لتنهار تدريجيا بعد موته، حتى ما إذا قدم هرقل تفرغ لمشاكلها خاصة الشرقية. وخلال عهد هذا الإمبراطور الشاب هرقل بدأت الإمبراطورية تتخذ سمات وملامح بيزنطية خاصة من حيث الشكل والمضمون. وبهذه الطريقة انتهى حلم جستنيان الذي ظل يحلم به طويلا ومنى نفسه كثيرا به. ولكن يبدو أن جستنيان كان السبب في هذه الأوضاع المتردية التي انتابت الإمبراطورية البيزنطية من بعده فقد أهمل الجيش بعد أن أنهك قواه في الحروب طيلة حكمه وبعد أن بدأ الملل يتطرق إلى جنوده، بل إن السكان أنفسهم بدأوا يتأففون من سوء أحوالهم، وقضى على اقتصاد الدولة وجعله متذبذبا. وهكذا أمست الخزانة خاوية تماما بعد أن بدد أموال الشعب من أجل تحقيق حلمه، ولم يكتف بهذا بل شيد العديد من العمائر والمباني التي أرهقت الخزانة وأرهقت الشعب نفسه الذي عانى كثيرا من السياسة المالية المتشددة الصارمة في نفس الوقت.

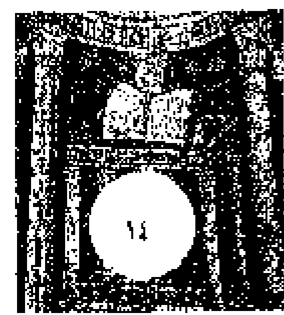
على أية حال، اعتلى هرقل ٦١٠ – ٦٤١م عرش الإمبراطورية بعد أن استطاع أن يقضي على فوقاس كما أسلفنا وكانت الأحوال العامة داخل الإمبراطورية لا تبشر بخير أبدا، فمن ناحية عاد الفرس لمحاربة الإمبراطورية البيزنطية ثانية وخاصة مع سياسة فوقاس المتشددة والمتعجرفة إزاء هذا الخصم اللدود، الذي ظل يترصدهم دائما، هذا من ناحية. أما من الناحية الأخرى فقد عاد الآفار لعبور نهر الدانوب واجتاحوا أقاليم تراقيا Thrace وإلليريا، أما السلاف فقد انتشروا في كل مكان من شبه جزيرة البلقان دون عناء أو أية مقاومة. لقد استطاع فوقاس أن يقضي على كل ما تبقى من معاني الاستقرار والاستمرار في الحكومة البيزنطية ولم يكن فوقاس هذا أهلا للتحديات التي واجهت الإمبراطورية ؛ لذا



سرعان ما خلص القدر الإمبراطورية منه. وقد كان على هرقل أن يعيد كل شيء وأن يقدم الاستقرار لدولته وخاصة لسكان عاصمتها القسطنطينية، كذلك كان عليه أن يملأ الخزانة البيزنطية ثانية، وأن يصلح من أحوال شعبه بعد أن ساهم بعض أسلافه في أن يلقوا عليه بهذه التبعات.

لقد أدرك هرقل مدى صعوبة مهمته لدرجة أنه فكر في العودة ثانية لشمال أفريقيا لولا اعتراض سكان العاصمة واعتراض البطريرك سرجيوس Sergius وكانت أحوال الإمبراطورية المتردية هي السبب في أن تتطرق هذه الفكرة إلى ذهن الإمبراطور، لقد كانت غارات الآفار مدمرة بمعنى الكلمة على أنهم اختلفوا عن غيرهم من العناصر البربرية الأخرى في أنهم كانوا ينزلون المناطق ينهبونها ويسلبونها ثم يعودوا لمناطق استقرارهم ثانية، بعكس السلاف الذين كانوا يستقرون في المناطق التي ينزلون بها بعد أن ينهبونها. وقد استطاعت هذه العناصر أن تستولي على شبه جزيرة البلقان، ولم يكتفوا بالمناطق الواقعة جنوبي الدانوب ومقدونيا، إذ اجتاحوا إقليم تراقيا ووصلوا في إغاراتهم حتى أسوار القسطنطينية؛ كما هاجم السلاف أيضا إقليم دالماشيا Dalmatia. وفي نفس الوقت استمر ضغط الفرس على الجبهة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ففي سنة ٦١١م بدأ هجوم الفرس على الشام حيث هزموا جيشا بيزنطيا بالقرب من انطاكية عام ٦١٣م، أمام هذا كله وجب على هرقل أن ينهض بدولته من سباتها العميق ليواجه هذه الأخطار السابقة الذكر.

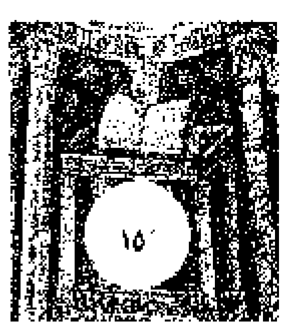
ومن الجدير بالذكر أن نذكر أن الفرس استطاعوا أن يسقطوا دمشق في قبضتهم عام ٦١٤م ولم يلبث بيت المقدس أن سقط بعد ذلك بقليل، وحملوا الصليب المقدس؛ وهو أقدس آثار المسيحية إلى بلاد فارس؛ واستطاعوا دخول مصر أيضا، وأصبحت مصر ولاية فارسية مدة عشر سنوات. وكان سقوط مصر في أيدي الفرس ضربة قاصمة للإمبراطورية البيزنطية؛ لأن مصر كانت البقرة الحلوب للإمبراطورية البيزنطية بغلالها الوفيرة وأموالها الكثيرة ومدنها العتيقة، وكان على بيزنطة أن تعد العدة لاستردادها مرة ثانية. وقد استطاعت القوات الفارسية أن تصل إلى أعماق آسيا الصغرى حتى مدينة خلقدونية وهو ما لم يحدث منذ عهد الملك دارا Dara، واكسركسيس Xerxes. وقد استبد اليأس بهرقل حتى أنه فكر في نقل مقر حكومته إلى شمال إفريقيا ليدير دفة الحكم من هناك. وقد استطاع هرقل أن يرتب شئون دولته الإدارية من الداخل، فقد حاول التوفيق بين المذهب المونوفيزتي ومذهب الإمبراطورية فاستطاع أن يجد صيغة مشتركة من التوفيق يسوي بها ما كان من الاختلافات المذهبية التي عمت دولته، كما أن هرقل لجأ - وللمرة الأولى- إلى تجنيد عناصر الجيش من العناصر الوطنية، وبهذا وضع قاعدة جديدة للتجنيد في الجيش، بدلا من الاعتماد على المرتزقة؛ بل وصل أمر الاعتناء بالجيش إلى أنه قام بنفسه بالإشراف على تدريب القوات البيزنطية، كما قام بنسخ الكتب العسكرية البيزنطية التي تعني بالجندية، وتوزيعها على الجند، ولم يكتف هرقل بتلك الإصلاحات، بل تعداها إلى ابتكار نظام إداري جديد يسمى نظام



الثيمات أي "الأقاليم العسكرية". وقد بدأ هرقل في عام ٦٢٢م سلسلة من الحروب ضد الإمبراطورية الفارسية، والتي انتهت بالنصر في النهاية، ودخوله العاصمة الفارسية، وفرض وصايته على عرش فارس.

وقد صمم هرقل على ضرب الفرس في عقر دارهم بدلا من استرداد مصر وبلاد الشام. وقد تمكن من تنفيذ مشروعه الطموح في أقل من ست سنوات (٦٢٢ - ٦٢٨). وفي سنة ٦٢٢م خرج هرقل بجيوشه من القسطنطينية بعد أن تركها تحت إمرة البطريرك سرجيوس والبطريق بونوس كوصيان على ابنه الصغير. وقد تحرك هرقل على رأس جيشه إلى بلاد فارس بعد أن رفض كسرى أبارويز دعوة هرقل السلمية للصلح. وقد استطاع هرقل أن يلحق بجيوش كسرى هزيمة سريعة في عام ٦٢٢م. وفي العام التالي ٦٢٣م نزل هرقل بجيوشه في إسوس Esoss بآسيا الصغرى واستطاع أن يهزم القوات الفارسية أيضا في هذا العام في معركة فاصلة بينهما. وفي السنتين التاليتين ٦٢٤، ٦٢٥م استطاع هرقل، أن يحتل أرمينية، واتجه إلى زيادة أعداد جيشه بتجنيد قبائل الكولخيس والكرج الإيبرية. وفي عام ٦٢٦م استطاع كسرى أن يجمع جنوده من كل فج ويحشدهم للقيام

بقايا سد مأرب في اليمن



بمعركة فاصلة يسحق فيها هرقل وجنوده. وكانت خطته أن يعرقل أحد جيوشه جيش هرقل بينما يتجه شطره الآخر لمحاصرة العاصمة البيزنطية ومهاجمتها ؛ وفي نفس الوقت اتفق معهم خاقان الآفار على أن يحاصر جيوشه القسطنطينية من الشمال أيضا، ولكن هرقل أفسد عليهم خطتهم بعد أن وجه شطرا من جيوشه للعاصمة للدفاع عنها في الوقت الذي استبسل فيه البطريرك سرجيوس، وبونوس ولسكان في الدفاع عن مدينتهم. وسرعان ما تسحب الآفار وحلت الهزيمة بالجيش الفارسي الآخر. وفي هذه الأثناء أتم هرقل استعداداته ليوجه الضربة القاضية إلى فارس في أواخر السنة التالية، إذ هبط إلى وادي دجلة وشتت شمل آخر جيش فارسي. ثم استولى على قصر كسرى بعد أن استولى على مدينة دستاجرد، وانسحب كسرى إلى المدائن. وفي ربيع سنة ٦٢٨م هب الفرس ثائرين على كسرى وانتهى الأمر بقتله وتولية ابنه مكانه، حيث عقد صلحا مع هرقل نتج عنه استرداد بيزنطة لجميع أراضيها التي فقدتها من قبل.

ومن الجدير بالذكر أن شيرويه بن كسرى السابق ذكره توفي بعد ذلك ببضعة أشهر وأعلن قبل وفاته أن يصبح هرقل وصيا على ابنه الصغير. ولا شك أن هذه الوصية قد أعطت هيبة وجلالا لهرقل وزادته نصرا على نصره ونالت من كرامة الفرس بقدر أعاد للروم كرامتهم ؛ وقد تمكن هرقل من إعادة الصليب المقدس ثانية. وبهذا النصر تحققت الآية الكريمة التي بشر بها الله المسلمين بانتصار الروم على الفرس والتي قال فيها :

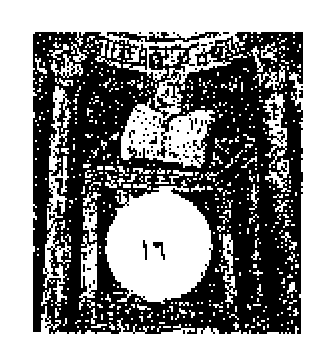
﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤)﴾ [الروم].

وبعد انتصارات هرقل وعودته إلى القسطنطينية في عام ٦٢٨م جاءه وهو في طريقه من الشام إلى عاصمته كتاب محمد ﷺ الذي بعث به في العام السادس من هجرته الشريفة كما سيرد إن شاء الله.

وقد عاد هرقل إلى القسطنطينية بعد نصره العظيم الذي أحرزه على الفرس وسط مواكب النصر والتهليل التي أعادت للدولة البيزنطية شيئا من الانتعاش والثقة بالنفس.

أما عن الآفار فقد كانت هزيمتهم التي لحقت بهم حول أسوار القسطنطينية وهزيمة أسطولهم في البحر أشد من الصاعقة عليهم، وكانت عاملا مهما في تداعي نفوذهم، وسيطرتهم على زمام الأمور بعد ذلك؛ حيث انقلب عليهم الصقالبة والبلغار وشهدت السنوات التالية قيام أول دولة صقلبية في مورافيا Moravia وتلاها إنشاء إمارة في دالمشيا Dalmatia وهي إمارة كرواتيا.

وهكذا أمن هرقل حدود دولته من كل جانب واتجه للإصلاحات الداخلية ولكن سرعان ما نهض لمحاربة عدو جديد له، ألا وهو المسلمون.

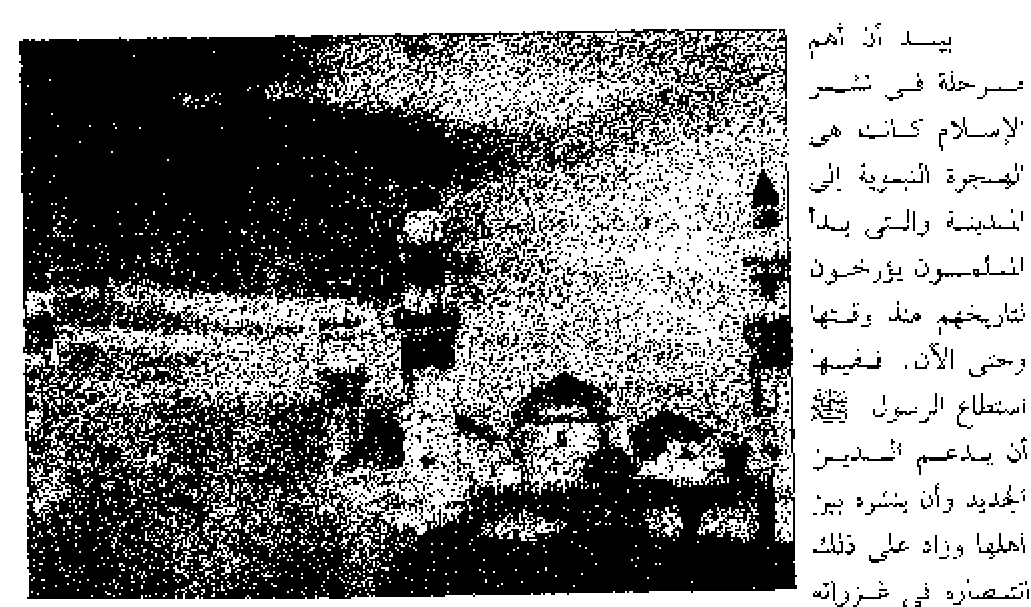




الفصل الثالث
المسلمون ودولة الروم زمن الرسول ﷺ

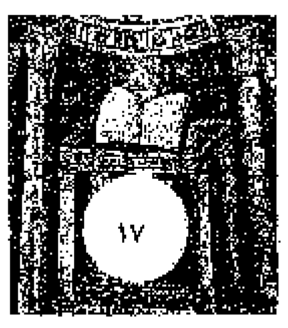
ولد محمد ﷺ بمكة سنة ٥٧٠م تقريبا، في عام الفيل وينتمي إلى واحدة من أشرف قبائلها وهي قريش. وكان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، تربى هناك وعمل بالرعي والتجارة وبلغ من حسن سيرته بين الناس في مكة أن سمي باسم "الصادق الأمين" وكلنا يعلم قصة نزول الوحي عليه برسالة الإسلام والقرآن الكريم، وكيفية انتشاره في مكة والمدينة. وقد دعى الرسول - ﷺ - العرب للدخول في الإسلام في كل بقاع شبه الجزيرة العربية واستطاع بالصبر والحزم والأخلاق الكريمة أن ينشره بين العرب أجمعين. وقد صار الإسلام على يديه عقيدة وثقافة وحضارة، وأصبح قوة عالمية لها وزنها على الصعيد الدولي في العصور الوسطى.

بيد أن أهم مرحلة في نشر الإسلام كانت هي الهجرة النبوية إلى المدينة والتي بدأ المسلمون يؤرخون لتاريخهم منذ وقتها وحتى الآن. ففيها استطاع الرسول ﷺ أن يدعم الدين الجديد وأن ينشره بين أهلها وزاد على ذلك انتصاره في غزواته ضد الكفار والمشركين



مسجد قباء [أول مسجد في الإسلام]

وفيها بنى أول مسجد للمسلمين، وأصبح الإسلام منذ يومها قوة قادرة على الرد على أعداء الإسلام في الجزيرة العربية. وأثناء وجود المسلمين في المدينة شرع الله الجهاد، وكان لزاما عليهم أن يخرجوا ليصدوا الكفار وينفذوا ما أمره الله بهم وهو القتال في سبيل نشر الدعوة الإسلامية وأذن للمسلمين بالقتال والجهاد في سبيل الله دفاعا عن أنفسهم ضد إيذاء الكفار.



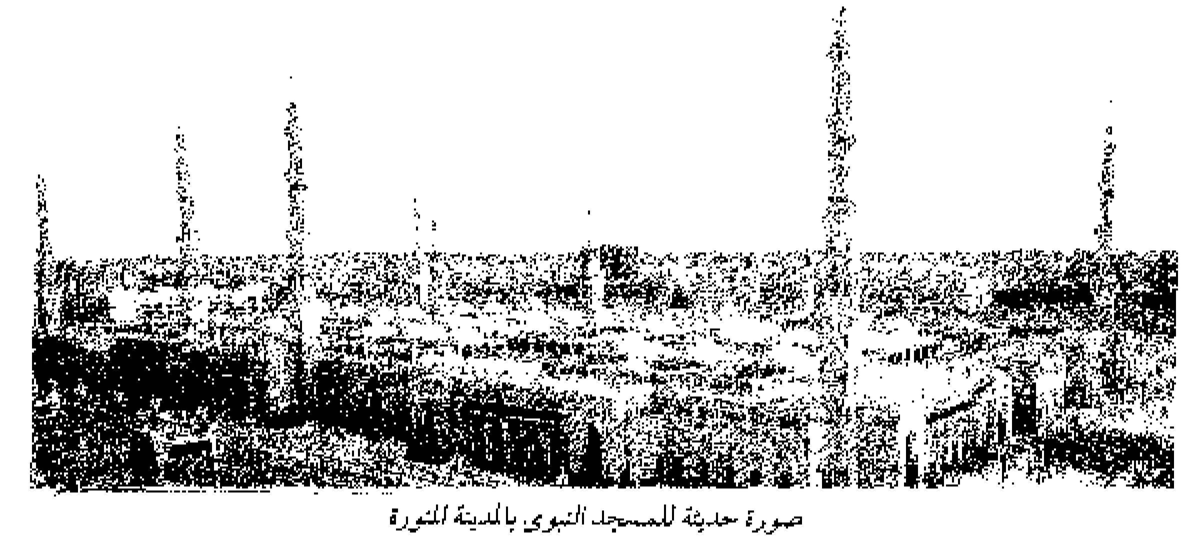
كان من نتيجة إيذاء الكفار للمسلمين أن هاجروا إلى المدينة،إلا أنهم تعقبوهم أيضا هناك ولم يتركوهم حتى أفرغوا ما في جعبتهم من حيل ومكائد وأذاقوهم شتى أنواع العذاب. وقد أحس الرسول - ﷺ - بما يدبره المشركون للإسلام والمسلمين، ومحاولتهم بكل جهدهم القضاء عليه وعلى أتباعه فكان على المسلمين أن يتخذوا الحيطة للدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الجديد، ولم يكن هناك مفر من المواجهة بينهم وبين أعداء الإسلام. فكان على الرسول - ﷺ- أن يستخدم الحجة والبراهين إلى جانب القتال ضد الكفار، وقد نصر الله المسلمين في مواقع عدة بعد أن أصبح الجهاد فريضة عليهم.

والجهاد في الإسلام هو دعوة لنظرة جديدة في الحياة تؤدي إلى بناء مجتمع تتلاشى فيه مفاهيم النظم القبلية ويحل محلها نظم سامية تكفل لأتباعها الطمأنينة والعدالة والمساواة؛ لأنها تقوم على تعاليم جاءت من لدن عزيز حكيم، وللجهاد آداب عدة. وقد دعم الله تشريعه للجهاد بآيات عدة منها قوله تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ... (٤٠) ﴾ [الحج]. وقد استطاع الإسلام أن يؤلف بين قلوب العرب آنذاك، وأن يجمعهم على عقيدة واحدة ولغة واحدة، وكان القرآن الكريم والسنة النبوية أسس في تشييد حضارة عريقة عاشت قرون طويلة؛ فمنه استمد المسلمون عقيدتهم الروحية، ومنه نظموا قوانينهم وآدابهم ومعاملاتهم.

لقد جعل الإسلام العرب أمة واحدة، لها حكومة نظامية كان مقرها المدينة، وعلى رأس الجهاز الحكومي كان الرسول ﷺ وعماله على القرى والمدن الأخرى، واتخذ من المدينة مقرا له وعاصمة مركزية للدولة الإسلامية.

كذلك خلق الإسلام تضامن بين أجناس عدة تحت راية واحدة هي راية الإسلام ولغة واحدة هي اللغة العربية التي ارتقت بنزول القرآن فيها. وقد أصبح المسجد الحرام قبلة يتوجه إليها المسلمون في شتى أنحاء الأرض؛ كذلك غدا المسجد النبوي بعد الهجرة دارا يجتمع فيها المسلمون بالرسول ﷺ يتشاورون في أمور دينهم ودنياهم، وقد أقر الإسلام نظام الشورى في الحكم من بعد الرسول ﷺ واستطاع أن يقضي على العصبية القبلية التي كانت سائدة في الجاهلية، وأصبح للسلطة المركزية السيادة العليا التي يُرجع إليها، وألغى التباين بين الناس وأقر حقوقهم.

أما من ناحية التنظيم العسكري فيمكن القول أنه في ظل مبدأ الجهاد الإسلامي خرج كل قادر على حمل السلاح للجهاد في سبيل نشر الدعوة وصد الكفار. وكان الرسول ﷺ على رأس هذا الجيش ومعه الصحابة وبقية المسلمين واتخذ العديد من الأسلحة لتدعيمه، وقد عرف المسلمون

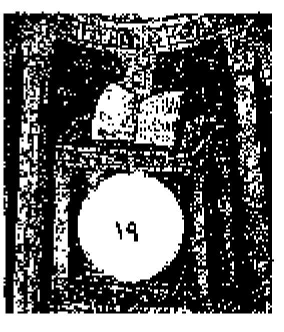


صورة حديثة للمسجد النبوي بالمدينة المنورة

نظام تعبئة الجند أسلوبا للقتال، ففي عهد الرسول ﷺ كان الفرسان يخرجون للحرب ومعهم المشاة مترجلين ومتراصين، أما فيما بعد في العصر الأموي، فكانت الجيوش الإسلامية تقسم إلى خمس فرق، ميمنة وميسرة، والقلب ثم المقدمة ثم مؤخرة الجيش.

ويقول توماس أرنولد نقلا عن فون كريمر: "وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد. ذلك النظام الذي سرت مزاياه بسرعة مذهلة تبعث على الدهشة والإعجاب. وإن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة . هكذا كان النظام

المسجد الحرام قبلة المسلمين





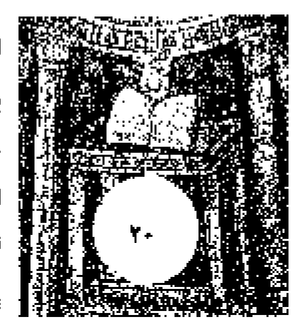
نموذج من رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء- [الرسالة التي أرسلت إلى كسرى]

القبلي بين العرب لأول مـــرة، وإن لـم يقض عليه نهائيا، شيئا ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية.

رسائل الرسـول ﷺ إلى الملوك والأمراء:

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ... (٢٨) ﴾ [سبأ] ... هكذا كـان على الرسول ﷺ قبل أن يفارق الدنيا أن يرسم الطريق أمام أصحابه للخروج بهذا الدين من حدود الجزيرة العربية وإبلاغه للناس أجمعين. وقد سلك الرسول الكريم في سبيل هذا طريقين: الأول، وهو الطرق الـسلمية التي اتبعـها مع الملوك والأباطرة بالرسل والكتب التي أرسلها إليـهم ومـنهم هرقل إمـبـراطـور الروم فكان هذا الكتاب الذي أرسله الرسول ﷺ إلى هرقل بـداية للعلاقـات الرسـمية بين الرسـول ﷺ وأباطرة الروم. أما الطريق الثاني، فهو الجهاد أو استخدام القوة العسكرية في سبيل نشر الدعوة الإسلامية. وقد راعى الرسول ﷺ أصح الطرق السياسيـة في المعاملات بينه وبين الأمم الأخرى، أرسل كتابا إلى الإمبـراطور هرقل إمبـراطور الروم يدعوه فيه إلى الإسلام وقد وصلنا نص هذا الكتاب في المصادر الأصلية كالطبري وغيره، وهذا هو نص الرسالة:

(بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم. السلام على من اتبع الهدى: أما بعد. أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتولى فإن إثم الأكاريين عليك ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٦٤) ﴾ [آل عمران]. هذا هو نص الرسالة كما ورد في المصادر الأصلية والتي دعا فيها الرسـول ﷺ هرقل بكل سمـاحة الإسـلام إلى الدخول في الديـن الجديد، ولا شك أن الرسـول ﷺ كـان على علم بأن هرقل هو عظيم الروم قـولا وفعلا، وبالتـالي له السطوة والغلبة في البلاد، وخاصة بعد إعادته للصليب المقدس من أيدي الفرس. وكـما يقـال فإن الناس على دين ملوكهم، ومن ثم لو اعـتنق هرقل

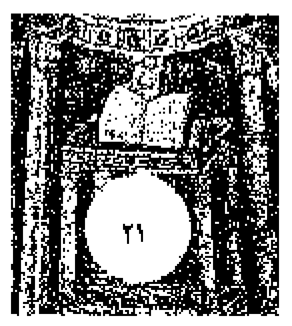


الإسلام حذا الناس حذوه. وقد أرسل الرسول ﷺ الرسالة مع دحية بن خليفة الكلبي عام ٦هـ/٦٢٧م. وقد كان لهذه الرسالة أثرا كبيرا على هرقل نفسه. وينكر بعض المستشرقين إرسال الرسول ﷺ لهذه الكتب ومما يدعم هذا الادعاء من وجهة نظرهم أنهم لم يعثروا على أية وثائق أو مخلفات تدل على إرسالها عند هؤلاء الملوك والأمراء. ومن المحتمل أن نص هذه الرسائل قد فقد لسبب من الأسباب، علاوة على أن نص هذه الرسائل قد وصلنا في المصادر الأصلية العربية.

ويقول البعض الآخر من المؤرخين أن الرسول ﷺ لم يخرج من الجزيرة العربية لذا لا يعلم شيئا بأحوال البلاد المجاورة له، ولكن يثبت التاريخ أن الرسول ﷺ كان يعمل بالتجارة بين الجزيرة العربية والبلاد المجاورة من قبل أن ينزل عليه الوحي ليتبئه بالدعوة للدين الجديد وأنه كان على دراية بأحوال الدولة البيزنطية لكثرة سفره إلى الشام، وتدل كلمة الآكاريين التي وردت في رسالته إلى هرقل على أنه كان على علم بالصراعات المذهبية في الدولة البيزنطية.

وقد أرسل الرسول ﷺ أيضا كتابا إلى قيرس أو المقوقس بمصر وهو الذي كان يحكمها من قبل الدولة البيزنطية، وقد تقبل المقوقس كتاب الرسول ﷺ بكل الرحب والسعة لأنه كان يعلم بأنه سوف يجيء نبي جديد في الأرض. وقد أكرم أعضاء بعثة رسول الله ﷺ وحملهم بالهدايا والأموال إلى الرسول ﷺ ورد عليه بقوله: «قد كنت أعلم أن نبيا قد بقي، وكنت أظن أن مخرجه الشام – وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله – فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس. والقبط لا تطاوعني في اتباعه ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك». وقد كان لهذه البعثة أثر كبير، فقد أرسل المقوقس للنبي ﷺ ماريا القبطية كجارية ضمن هداياه، فتزوجها النبي وكانت وصيته الشريفة للمسلمين «**إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم فيكم صهرا وذمة**».

وسوف نتعرض الآن لأثر الرسالة التي أرسلها النبي ﷺ إلى هرقل عليه، فقد تقبل هرقل هذه الرسالة قبولا حسنا، وكان وقتها بالتمام عائدا إلى القسطنطينية. وتروي المصادر العربية كالطبري وصحيح البخاري عن أبي سفيان قوله: خرجنا في نفر من قريش تجارا إلى الشام... ووالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطة فقال أنتم من رهط هذا الرجل الذي بالحجاز؟ قلنا: نعم! قال: انطلقوا بنا إلى الملك. فانطلقنا معه. فلما انتهينا إليه قال: أيكم أمسى به رحما! قلت: أنا فقال: ادنه. فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي، قال إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه، فوالله لو كذبت ما ردوا علي، ولكن كنت امرءا سيدا أتكرم عن الكذب، وعرفت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته، أن يحفظوا ذلك علي ثم يحدثوا به عني، فلم أكذبه. وقال سألني عن النبي ﷺ. فحاول أبو سفيان أن يصغر له شأنه (وكان ما زال كافرا) ويهون عليه أمره فلم يلتفت



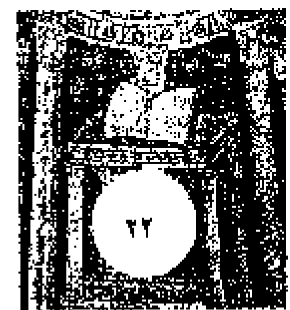
نبيه. وقال له: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو أوسطنا نسبا، قال: هل كان من أهل بيته من يقول مثل قوله؟ قلت: لا، قال: فهل له فيكم ملك سلبتموه إياه؟ قالت: لا، قال: فمن اتبعه منكم؟ قلت: الضعفاء والمساكين، قال: فهل يحبه من يتبعه ويلزمه أم يبغضه ويفارقه؟ قلت: ما يتبعه رجل ففارقه، قال: هل يغدر؟ قال أبو سفيان: فلم أجد شيئا أغمزه به غيرها قلت: لا ونحن في هدنة ولا نأمن غدره قال أبو سفيان فما التفت إليها.

ويقول أبو سفيان: قال لي هرقل سألتك عن نسبه فزعمت أنه من أوسط الناس وكذلك الأنبياء وسألتك هل قال أحد من بيته مثل قوله فهو متشبه به فزعمت أن لا. وسألتك هل سلبتموه ملكه فجاء بهذا الأمر لتردوا عليه ملكه فزعمت أن لا، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم من الضعفاء والمساكين وكذلك أتباع الرسل. وسألتك عمن يتبعه أيحبه أم يفارقه فزعمت أنهم يحبونه ولا يفارقونه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلبا فتخرج منه، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا؛ ولئن صدقتني ليسيرن على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه. انطلق وشأنك".

ثم جمع هرقل بطارقة دولته وأشرف عليهم من مكان عال خوفا على نفسه وأغلق الأبواب خلفهم ثم قال لهم: "قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وأنه والله النبي الذي نجده في كتابنا فهلم فنتبعه ونصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا. فنفروا منه، ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا فقال ردوهم علي وخافهم على نفسه، وقال إنما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم وقد رأيت منكم ما سرني فسجدوا له.

وتجمع الروايات العربية على أن هرقل كان يميل للاستجابة للإسلام، وكان من أهم أسباب رفضه هو اتباعه لهذا الدين هو أنهم استكثروا على العرب أن يخرج من بينهم نبي، حيث كانوا ينظرون إليهم على أنهم مجرد بدو في الصحراء، وأن ما يدعونه هو مجرد هرطقة. إذ كيف يخضعون بما لهم من حضارة وملك وجبروت لهذا النبي الذي خرج من الصحارى يدعوهم للتخلي عن دينهم، صاحب السيادة العليا آنذاك في عالم العصور الوسطى، والدخول إلى الإسلام. وقد غضب هرقل حين علم أن المقوقس دخل مع المسلمين في صلح بعد محاصرتهم لحصن بابليون Bablyon واستدعاه إلى القسطنطينية ثم نفاه وأرسل قواده لمحاربة العرب في مصر. وهذه الرواية تقلل من قيمة الروايات العربية التي أجمعت على أن هرقل كان راغبا في دخول الإسلام وخاصة أن العرب كانوا قد داهموه قبل ذلك في الشام في غزوتي مؤتة وتبوك. وإذا كانت الروايات العربية صحيحة فهذا لأن هرقل أراد أن يتجنب العداء مع القوة العربية الصاعدة ليتفرغ إلى تأمين حدود دولته مع الفرس.





غزوات الرسول ﷺ ضد الروم

سرية مؤتة:

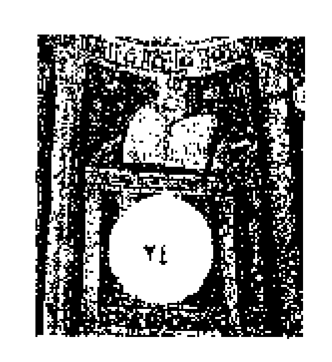
لما اشتد ساعد الرسول ﷺ وأعوانه وانتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية بدرجة أهلته كي يقوم بحملات خارجية في سبيل نشر الدين الجديد، كانت أولى حملاته على بلاد الروم سنة ٨هـ / ٦٢٩م وخاصة بعد أن رفض هرقل دعوته السلمية للدخول في الإسلام، فوجه الرسول ﷺ قوة إسلامية تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين إلى مؤتة على رأس هذه الحملة زيد بن حارثة، وكان بهذه الحملة خالد بن الوليد متطوعا وجعفر بن أبي طالب. ولما علمت قوات الروم بمسيرة هذا الجيش الإسلامي نحو أراضيهم خرجت له عند مؤتة، وهي قرية صغيرة من قرى البلقاء على حدود الشام، واستشهد في هذه الغزوة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، وكاد المسلمون أن يفنوا لولا أن حمل خالد بن الوليد لواء القيادة من بعدهما واستطاع أن ينجو بقوات المسلمين ويعود بهم إلى المدينة ثانية بعد أن أبلى المسلمون فيها بلاء حسنا؛ ومنذ هذه الموقعة أطلق على خالد بن الوليد لقب سيف الله المسلول.

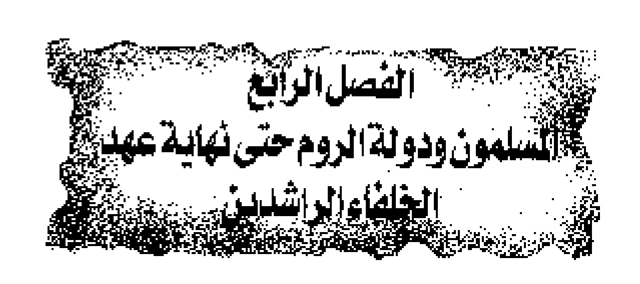
وقد يتساءل البعض عن الدافع الذي أدى إلى هذه الغزوة؟ كان السبب الرئيسي وراء هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ أرسل رسولا من قبله إلى العرب الضاربين على حدود الشام يدعوهم للإسلام فقتلوه، فأخرج لهم الرسول هذه الحملة؛

وثمة هدف آخر هو نشر الإسلام في هذه المناطق، ومن الجدير بالذكر أن ننوه عن أن البيزنطيين نظروا إلى هذه الحملة على أنها مجرد غارة عربية كالتي اعتادوا عليها من قبل حيث ينهب العرب المناطق التي يغيرون عليها ثم يعودون بعدها إلى بلادهم ثانية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اعتقدوا أنهم جاءوا ليأخذوا بالثأر لرسولهم الذي قتل على أيدي العرب الموالين للبيزنطيين على حدود الشام.

غزوة تبوك :

كانت هذه الغزوة في عام ٩هـ / ٦٣٠م وكان من أسبابها أن بلغ الرسول ﷺ أن قوات الروم قد تجمعت على حدود فلسطين ومعهم بعض القبائل العربية لقتال المسلمين. ولما علم الرسول ﷺ بصحة هذا دعى المسلمين إلى الجهاد وخرج بالجيش إلى الشام فلما وصل إلى تبوك أقام فيها أياما فصالحه أهلها، وجاءت الوفود من أيله وغيرها وصالحوه على دفع الجزية له، كما بعث بخالد بن الوليد إلى دومة الجندل ومعه مجموعة من الجند فأسر صاحبها واستولى عليها ثم عاد الرسول إلى المدينة، وكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ حيث وافته المنية بعد ذلك ومات في يوم الإثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١هـ، يونية سنة ٦٣٢م، بعد أن نشر الدعوة الإسلامية ووطد أركانها في الجزيرة العربية كلها، وبعد أن ألف بين قلوب العرب وجمعهم على كتاب واحد ولغة واحدة وقبلة واحدة.





الفصل الرابع
المسلمون ودولة الروم حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين

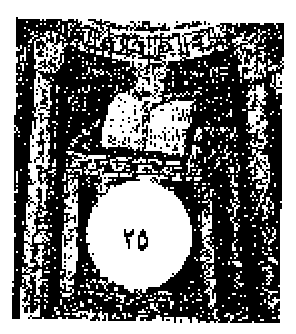
انتهى عهد الرسول ﷺ بانتقاله إلى الرفيق الأعلى عام ١١هـ/ ٦٣٢م وقبل وفاته كان قد أعد حملة عسكرية بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة، الذي استشهد أباه في موقعة مؤتة؛ وكان أسامة هذا صبيا ما زال في مقتبل العمر ومع هذا ولاه الرسول ﷺ إمرة هذا الجيش الذي كان يحوي العديد من قادة المسلمين، وكانت هذه الحملة موجهة إلى أراضي الروم. وقد توفي الرسول ﷺ قبل أن يشهد خروج هذه الحملة وقدر لخليفته أبو بكر الصديق أن يشهد ذلك بل ويسيرها كما كان يريد لها الرسول ﷺ. وقد أبى أبو بكر إلا أن ينفذ رغبة رسول الله ﷺ ويبعث بهذه الحملة كما أعدها الرسول ﷺ إلى مشارف الشام؛ وذلك لأنه رأى فيها مناورة حربية وسياسية تشعر الروم بقوة المسلمين وثبات مركزهم.

ومن الجدير بالذكر أن الرسول ﷺ قد أسند قيادة هذا الجيش إلى أسامة بن زيد وكان في مقتبل العمر، مما جعل بعض الصحابة يتأففون من قيدته؛ ولكن بفضل حزم أبي بكر الصديق استطاع أن يقنعهم ويثنيهم عن هواهم لينضووا قادة أكفاء في هذا الجيش. ولما تحرك الجيش، خرج أبو بكر ماشيا لتوديعه بينما كان أسامة راكبا وتحدث إليه أبو بكر الصديق حديثا ألهب حماسة أسامة بن زيد بن حارثة.

وهكذا قدر لأبي بكر أن يشغل العرب في الفتوح الخارجية، ليخمد الفتن الداخلية؛ وكذلك قدر للإمبراطور هرقل أن يشهد انتصاراته التي أحرزها على الدولة الفارسية واسترد بفضلها أملاكه ثانية وهي تتحول إلى هزائم على أيدي المسلمين.

وقد نزل أسامة بجيشه في منطقة البلقاء بعد مسيرة عشرين يوما حيث تقع مؤتة وقضى على كل من وقف في وجهه من أعداء الإسلام، وأحرق المدن التي قاومت المسلمين، ولما سمع هرقل بهذه الأنباء أرسل جيشا قويا عسكر في البلقاء ولكن المسلمين وعلى رأسهم أبي بكر الصديق لم يكونوا قد فكروا في فتح بلاد الشام بعد.

وهكذا وفقت حملة أسامة بن زيد وثأر لأبيه الذي قتله الروم في موقعة مؤتة عام ٨هـ/ ٦٢٩م. وقد استمرت حركة الفتوحات الإسلامية بعد ذلك حيث ولي المثنى بن حارثة إمرة الجيش ولحق به أيضا خالد بن الوليد ليتوجها لفتح بلاد فارس والعراق.



ومن الجدير بالذكر أن أبا بكر الصديق وجه الجيوش الإسلامية إلى أراضي الفرس والروم معا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حسن تدبير الخليفة أبو بكر الصديق وقوة عزيمته، وعلى القوة الحربية التي أصبح عليها العرب بعد انتشار الإسلام بينهم. ومن المحتمل أن السبب في هذه السياسة ربما يرجع إلى أن أبو بكر الصديق أراد من ورائها ألا تستعين إحدى الدولتين بالأخرى، أو يعقدا معاهدات بينهما فيخرجا معا لمحاربة المسلمين.

انتهت حملة أسامة بن زيد على النحو الذي عرضناه وكان هرقل قد حشد جيوشه في منطقة الِلقاء على الحدود بين العرب والبيزنطيين، ولما علم أبو بكر بهذا أعد جيشا ضخما دعا له جميع المقاتلين المسلمين في الجزيرة العربية، وولى إمرة هذا الجيش إلى أربعة من القادة وهم أبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة. وكان لكل قائد منهم منطقة معينة يتجه إليها، وأمرهم أبو بكر الصديق بأن يتعاونوا سويا، وأن يكونوا جميعا تحت إمرة أبي عبيدة ابن الجراح، وأن يستقل عمرو بفتح فلسطين، وأن يدعم الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وقد رسم أبو بكر الصديق الخطة لعمرو بن العاص، الذي سار بمقتضاها إلى فلسطين عن طريق إيلياء ونزل بغمر العربات، ولما علم هرقل بوصول كتائب المسلمين أراد أن يتبع المبدأ الروماني المعروف "فرق تسد" مع الجيش الإسلامي، وقد وصلت الأنباء إلى المسلمين بأن الجيوش البيزنطية تربو على المائة ألف، فأرسل عمرو عبد الله بن عمر في ألف فارس داهم بهم حشدا كبيرا من الروم يقول بعض المؤرخين أنه بلغ عشرة آلاف مقاتل، وحمل بنفسه على كبيرهم فقتله؛ فانتشر الهلع والرعب بين صفوف الروم؛ وانتهى الأمر بهزيمة الروم؛ وقد قتل من المسلمين سبعة جنود بينما أسر من الروم ٦٠٠ غير القتلى. وفي الصباح أقبل على المسلمين آلاف من مقاتلي الروم فأقبل عمرو على المسلمين وأخذ يحفزهم ويقوي عزيمتهم بالإيمان ويأمرهم بقراءة القرآن؛ بينما جاء الروم في محاولة يائسة منهم لتحقيق أية مكاسب عسكرية؛ إلا أنهم لقوا هزيمة فادحة في هذه المعركة وفقدوا ١٥ ألفا من رجالهم، بينما كانت خسائر المسلمين ١٣٠ مقاتلا فقط.

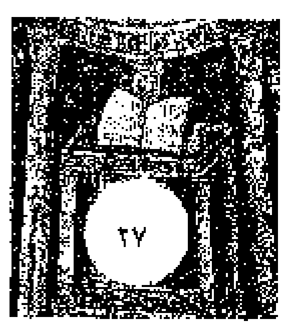
وفي الوقت الذي كان عمرو بن العاص يفتح فلسطين كان أبو عبيدة بن الجراح يجاهد بجيوشه في بلاد الشام محاولا فتح مدنها، ولكن بالرغم من بسالة القوات الإسلامية إلا أنها عجزت عن صد قوات الروم وخاصة الحملة التي أرسلها أبو عبيدة إلى مدينة بصرى، وهي مدينة تجارية هامة كانت حاميتها على درجة كبيرة من الشجاعة والمقاومة. وأمام هذا كله اضطر أبو عبيدة



بن الجراح أن يراسل الخليفة ليمده بالمدد والمساعدات العسكرية وأرسل الخليفة إلى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه إلى بلاد الشام لمساعدة الجيوش العربية هناك بقيادة أبي عبيدة بن الجراح. وترك خالد بن الوليد المثنى بن حارثة في العراق، وأخذ شطرا من جنده وتوجه إلى بلاد الشام، وقد استطاع أن يستولي على مدينة بصرى التجارية بفضل مساعدة واليها رومانوس الذي اعتنق الإسلام والذي دلهم على سرداب للدخول منه إلى المدينة. وقد شجع هذا النصر المسلمين على محاصرة دمشق في الوقت الذي شتت فيه عمرو بن العاص شمل الجيوش البيزنطية في فلسطين. ومع هذا أرسل هرقل أربعة جيوش بيزنطية لمحاربة جيوش المسلمين هناك. ولما علم قادة المسلمين بهذا اتفقوا على أن يجتمعوا في اليرموك بجيوشهم ضد الجيوش البيزنطية وقد وجه إليهم الإمبراطورهرقل جيوشه التي بلغت عدة آلاف من الجنود البيزنطيين ومن والاهم من العرب الذين كانوا تحت إمرة ملك الغساسنة.

وقد أوصى هرقل ماهان قائد جيوشه بالاتصال بالمسلمين لطلب الصلح، فأرسل لهم جبلة بن الأيهم ليفاوضهم، وكان المسلمون مازالوا تحت قيادة أبي عبيدة الجراح الذي رفض مطالب

ضريح أبي عبيدة بن الجراح



الروم؛ ولم يكن خالد بن الوليد قد قدم من العراق بعد. وعندما وفد إلى الشام تولى القيادة هناك حيث رتب الجيوش الإسلامية على النحو التالي: أبو عبيدة في قلب الجيش، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان على الميسرة، ودارت رحى القتال بين الجانبين وظلت دائرة سجالا بينهما إلى أن جاء يوم الواقوصة، والذي اشتد فيه القتال بين المسلمين والبيزنطيين، وفيه خسرت الروم آلافا من خيرة جنودها، وأثناء المعركة مات أبو بكر الصديق وتولى الخلافة عمر بن الخطاب.

وقد انتهت هذه المعركة بنصر ساحق للمسلمين، وفي الواقع كانت معركة اليرموك حدا فاصلا بين المسلمين والروم، فقد أدى هذا النصر إلى ازدياد قوة المسلمين وتدهور الحالة المعنوية للبيزنطيين، كما لفت انتباه أباطرة بيزنطة إلى حجم القوة الإسلامية الصاعدة ومدى خطورتها على الأمن البيزنطي الداخلي والخارجي؛ وهو الأمر الذي أجبر قادة بيزنطة على القيام بإصلاحات إدارية وعسكرية لتدعيم القوة الحربية لبيزنطة لصد المسلمين بعد ذلك.

رسم يصور معركة اليرموك

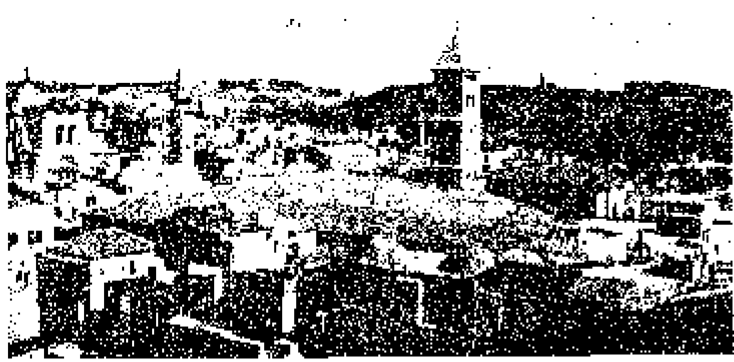
لذلك توضحت هذه الموقعة المهمة العبقرية العسكرية الإسلامية وتجلت عظمتها في خطة خالد بن الوليد للمعركة وقضائه على مشكلة المياه التي كانت الشغل الشاغل للجيوش آنذاك. فقد عسكر خالد بن الوليد بالقوات الإسلامية شمال نهر اليرموك، وفطن خالد إلى ضعف موقف الروم، إذ كان النهر يدور في الشمال على شكل نصف دائرة تقريبا، بحيث يصنع منحنى القوس سهلا له باب واحد من الجنوب، بينما يسد مدخله مغلق بخندق طبيعي. فسد خالد المدخل الجنوبي، على حين دار خلف جيش الروم، وأحكم حوله الحصار، ثم شن هجوما شديدا على جيش الروم، الذي لقي هزيمة فادحة، كما سبق القول. وقد عاد أبو عبيدة الجراح ليتولى قيادة الجيش الإسلامي ثانية بعد أن تنحى خالد بن الوليد عن القيادة بأمر من عمر ابن الخطاب.

وفي المرحلة التالية من الفتح أمر عمر بن الخطاب بأن تتوجه الجيوش الإسلامية الظافرة لفتح دمشق وأن تذهب فرقا صغيرة منها لمناوشة أهل فحل، وقد استطاع المسلمون أن يستولوا على دمشق عام ١٣هـ/ ٦٣٤م بعد حصار دام سبعين يوما.

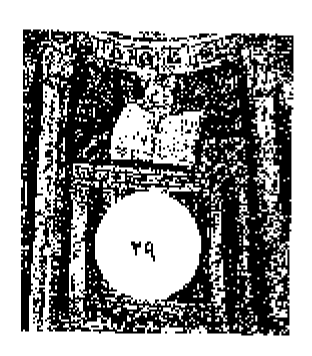
ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور هرقل توجه إلى مدينة حمص بعد أن وصلته أنباء الهزيمة في اليرموك وكان ساعتها ببيت المقدس. وتقول بعض الآراء أن هرقل لما علم بهزيمة جيوشه في اليرموك فر إلى عاصمته القسطنطينية مودعا بلاد الشام قائلا: "عليك يا سورية السلام ونعم هذا البلد للعدو".

ومن المحتمل أن هرقل انسحب إلى أنطاكية ليدير دفة الحرب من هناك كما يذكر البعض؛ لأنها كانت أقرب المدن إلى القسطنطينية وإلى أرض العمليات الحربية بالشام، على أية حال، بعد أن استولى المسلمون على دمشق توجهوا إلى منطقة فحل في الأردن، ودارت معارك فحل بيسان التي انتهت بنصر المسلمين وبسط نفوذهم على تلك المناطق وبعدها استولى المسلمون على حمص، واللاذقية وقنسرين. وكانت موقعة فحل بيسان من المواقع الهامة التي استطاع المسلمون فيها أن يتغلبوا على آلاف من البيزنطيين وتتبعوا فلولهم وأخذوا يوخزونهم بالرماح حتى أصيبوا جميعا.

واتجهت أجزاء من الجيش الإسلامي إلى فلسطين فاستولت على بيسان بعد أن حاصرها المسلمون عدة أيام، ولما علم أهل طبرية بما حل بأهل فحل بيان تصالحوا مع المسلمين. وهكذا اتخذ النفوذ الإسلامي في المد مقابل انحسار النفوذ



صورة لمدينة القدس القديمة





مدخل مسجد عمر بن الخطاب المجاور لكنيسة القيامة [حيث صلى عُمر الفاروق]

البيزنطى وتقلص القوة البيزنطية من بلاد الشام.

كان على المسلمين بعد ذلك أن يوسعوا فتوحاتهم ويؤكدوها فتوغلوا فى فلسطين، وكان عليها حاكما يدعى أرطبون، الذى حشد قواتا هائلة فى بيت المقدس وغزة والرملة وفى أجنادين أيضا. وقد راسل عمرو بن العاص عمر بن الخطاب يستشيره فى الأمر فقال عمر: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عما تنفرج؟ وكتب إلى القواد أن يسيروا إلى قيصرية والرملة وإيلياء ليشغلوا الروم عن عمرو.

ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى أجنادين وتم النصر حليف المسلمين بعد أن قتلوا قتالا عنيفا لا يقل عن

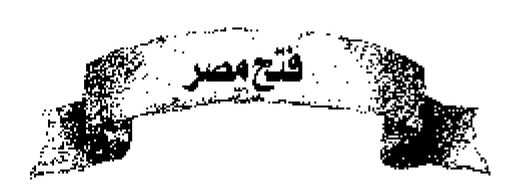
كنيسة المهد التى يقصدها المسيحيون



اليرموك، وانهزم البيزنطيون وعلى رأسهم أرطبون في ثمانين ألف من جنده، حسب تقديرات بعض المؤرخين العرب. لم يتبق أمام المسلمين في فلسطين إلا بيت المقدس، الذي أبى أرطبون أن يسلمه للمسلمين، فاضطر المسلمون إلى حصار هذه المدينة، وخاف المسيحيون على كنائسهم، وأنه لا مفر من الهزيمة لو اصطدموا بالمسلمين فآثر أمراء المدينة وعلى رأسهم البطريرك صفرونيوس السلام مع المسلمين، وبالفعل تم الاتفاق بين الجانبين على هذا بشرط أن يحضر عمر بن الخطاب بنفسه إلى بيت المقدس ليتسلم مفاتيحها شخصيا. ولبى عمر بن الخطاب طلب البطريرك صفرونيوس وذهب إلى فلسطين وتسلم مفاتيح بيت المقدس بعد أن وعد المسيحيين هناك بالأمان.

وهكذا، تم فتح إيلياء في عام ١٦هـ/ ٦٣٧م، وبعد ذلك بقي هناك دور من دور المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين عند بلدة قيصرية، حيث أرسل هرقل ابنه قسطنطين بجيش كثيف، وكان معسكرا بأنطاكية آنذاك؛ غير أن الخوف والرهبة من المسلمين كانا عاملين أساسيين من عوامل انتصار المسلمين على الروم، علاوة على هروب قسطنطين من قيصرية بعد أن علم بانسحاب أبيه من أنطاكية وسلم الجند للمسلمين بعد أن علموا بهرب أميرهم إلى القسطنطينية.

لقد كتب على الإمبراطور هرقل أن يشهد ضياع أملاك إمبراطوريته واحدة تلو الأخرى علاوة على الأحوال الاقتصادية المتردية داخل دولته وهجمات القبائل السلافية على حدوده الغربية من حين لآخر مشكلة عدوا جديدا لبيزنطة. وهكذا قضى المسلمون على النفوذ البيزنطي في بلاد الشام مقابل انحسار النفوذ البيزنطي فيها بسرعة غير متوقعة؛ الأمر الذي مهد إلى انتشار الإسلام بين مسيحيي بلاد الشام وفلسطين، الذين كانوا يخالفون كنيسة القسطنطينية في مذهبها الديني.



كان على المسلمين أن يأمنوا فتوحاتهم في بلاد الشام وفلسطين وفارس، وذلك بالاستيلاء على مصر، وتخليصها من الوجود البيزنطي، الذي كان يمقته المصريون. لقد كانت مصر بالنسبة للعرب آنذاك نقطة الانطلاق التالية في الفتوحات الإسلامية، لا سيما نحو ولاية إفريقية البيزنطية، مهد الإمبراطور هرقل؛ كما أنها القلب الاقتصادي الذي كان يضخ ما بين ٨-٩ مليون أردب من القمح إلى أسواق وصوامع العاصمة البيزنطية سنويا، بالإضافة إلى الجبايات النقدية التي بلغت في عهد المقوقس عشرين مليونا من الدينارات سنويا على حد ذكر ابن عبد الحكم وشيخ المؤرخين تقي الدين المقريزي.

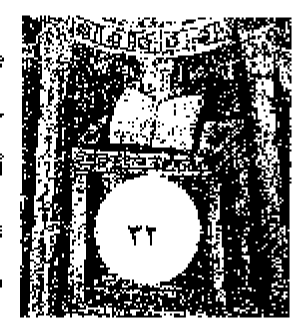
تذكر المصادر التاريخية أنه لما كان عمر بن الخطاب في مؤتمر الجابية بالشام أشار عليه عمرو بن العاص بفتح مصر وأخذ يحبب إليه فتح مصر ويهون أمامه كي يأذن له بالخروج إليها. وتردد عمر بن الخطاب في الإذن له بذلك لعدة أسباب: منها أن عمر بن الخطاب تردد في الموافقة على هذا الامر

دير سانت كاترين- الذي أمر ببنائه (جستنيان الأول)

وأشفق على المسلمين من أن يصيبهم الإخفاق، بالاضافة إلى أنه لن يستطيع أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشا كبيرا لتفرق جند المسلمين في بلاد الشام والجزيرة وفارس؛ أضف إلى ذلك ما كان يخشاه عمر من التوسع في الفتح وخاصة أن أقدام المسلمين لم تثبت بعد في البلاد التى فتحوها ولم يزل عمرو يهون عليه فتحها ويعظم أمرها طمعا فيها ورغبة في خيراتها، لأنه وقف بنفسه على أحوالها في الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة عدة مرات، وعرف خصب أرضها ووفرة خيراتها؟ كما بين لعمر أن استيلاء المسلمين عليها معناه تثبيت فتوحهم في بلاد الشام وفلسطين وتأمينها من ناحية الجنوب. ويذكر أحد المؤرخين أن تردد عمر ابن الخطاب في الإذن لعمرو بالسير إلى مصر لم يكن في فتح مصر نفسه بقدر ما كان في شخص القائد.

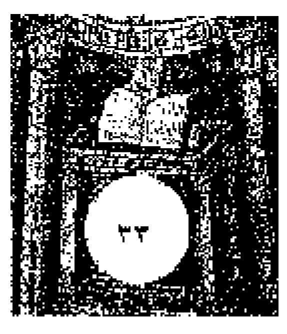
رسم تخيلي لحصن بابليون زمن الفتح العربي

ويقول المؤرخ سانت موس أن العرب أرسلوا حملة سبقت جيوشهم المتجهة إلى مصر، لكن يبدو أن هذا القول يبعد عن الحقيقة، لافتقاره إلى البراهين التاريخية. ولم يزل عمرو بعمر حتى أذن له بأربعة آلاف مقاتل، وفي رواية أخرى خمسة آلاف مقاتل،



وقال لعمرو: "إني مرسل لك كتاب فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض واستعن بالله واستنصره". وعلى الرغم من وصول كتاب عمر إلى عمرو وهو في طريقه إلى مصر فإنه لم يفتحه ليقرأ ما فيه إلا بعد أن دخل حدود مصر عند العريش.

لقد اجتاز جيش المسلمين حدود مصر عام ١٨هـ/٦٣٩م واستولى على الفرما (بلوزيوم) بعد أن فاجأ الحامية البيزنطية فيها. ثم اتجه إلى بلبيس وهزم الحاميات البيزنطية هناك والتي كانت تحت قيادة أرطبون السالف ذكره، ثم تقدم واستولى على قرية أم دنين، ومكانها الآن الأزبكية بالقاهرة، ودارت المعارك هناك بين الجانبين فلما أبطأ الفتح، أرسل عمرو بن العاص طالبا المدد العسكري من الخليفة فأمده بأربعة آلاف مقاتل يرأسهم مجموعة عظيمة من قادة المسلمين والصحابة. واستطاع المسلمون أن يوقعوا الهزيمة بالقوات البيزنطية في تلك المناطق، حيث فروا إلى حصن بابليون، أو قصر الشمع، كما يسميه البعض؛ فحاصر المسلمون بدورهم هذا الحصن. وكان المسلمون آنذاك يفتقرون إلى أدوات الحصار؛ لذا كان حصارهم له حصارا بدائيا، أي أنهم تراصوا حول الحصن في محاولة لمنع خروج أي أحد منه؛ ولم يستمر الأمر طويلا فقد دارت معارك عديدة بين الطرفين كان يعود بعدها البيزنطيون لائذين داخل الحصن؛ وسرعان ما دارت المفاوضات بين الجانبين وخاصة بعد أن رأى المقوقس أو قيرس ضرورة ذلك؛ وكان رد المسلمين على هذه المفاوضات يتلخص في ثلاثة أمور: الدخول في الإسلام أو الجزية أو السيف فاختار البيزنطيون السيف، وعادت الحرب بينهم ثانية. وفي النهاية اضطر قيرس أو المقوقس إلى عقد معاهدة سميت باسم معاهدة بابليون الأولى، وربطها بموافقة هرقل عليها، وكانت خاصة بقبط مصر، ولكن هرقل رفضها واستدعى قيرس إلى القسطنطينية ليحقق معه في ذلك، وأمر قواده باستكمال القتال؛ ولكن كان المسلمون قد استولوا على الحصن ولم يعد هناك مفر من التسليم، ورحلوا إلى الإسكندرية خلال ثلاثة أيام. وبهذا بسط المسلمون نفوذهم على مصر السفلى ومصر الوسطى كمرحلة أولى. وعاود البيزنطيون المعارك ثانية في الإسكندرية بعد أن بادر هرقل بإرسال جيش ومدد يحول دون وقوعها في أيدي المسلمين، وتقاتل الفريقان قتالا عنيفا على مدى أربعة أشهر حاصر فيها المسلمون الإسكندرية؛ وتم فتح الإسكندرية عنوة وتصالح المسلمون مع أهلها، وعقد قيرس أو المقوقس صلحا سمي باسم صلح الإسكندرية أو معاهدة بابليون الثانية.

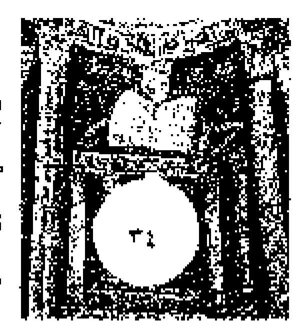


لقد لعب الصراع المذهبي الكنسي بين كنيستي القسطنطينية والإسكندرية دورا هاما في ترحيب المصريين بدخول المسلمين بما عرف عنهم من التسامح الديني والعدل والخلق الكريم وبكل ما يقضي به الإسلام وعمل به المسلمون. فقد أراد هرقل أن يفرض مذهب الاتحاد عنوة على شعوب مصر والشام وفلسطين، لكنه فشل في هذا، مما جر نقمة سكان هذه البلاد عليه. ومن الجدير بالذكر أن الأقباط سهلوا للعرب فتح مصر وهو ما أدخل بارقة أمل في نفوس المصريين للتخلص من الصراع المذهبي ومن ربقة الكنيسة الشرقية الكائنة بالقسطنطينية. علاوة على أن بيزنطة كان شغلها الشاغل هو تحصيل أكبر قدر ممكن من ثروات مصر وإيداعها الخزانة البيزنطية.

وبضياع مصر من المدى البيزنطيين كتب عليهم أن يدخلوا مع المسلمين في دور من أدوار المواجهة الطويلة المضنية، التي كانت قوتها تتوقف على قوة الأباطرة والخلفاء وسياساتهم إزاء كليهما.

وبعد هذه المرحلة من الفتوحات، قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عام ٢٣هـ/٦٤٣م، ليتولى حكم الدولة الإسلامية بعده عثمان بن عفان؛ الذي لعب في عهده والي الشام معاوية بن أبي سفيان دورا مهما في الفتوحات الإسلامية لبلاد الروم، وفي توطيد وتوسيع دائرة الدولة الإسلامية. كان معاوية بن أبي سفيان قد تولى ولاية الشام منذ عهد عمر بن الخطاب، وأخذ يوطد لنفوذه هناك خاصة بعد أن تولى الخلافة أحد أقربائه وهو عثمان بن عفان؛ الذي اتبع سياسة تقريب الأقرباء والتي أودت بحياته في نهاية المطاف.

وقبل أن نتحدث عن الفتوحات الإسلامية أو دور المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الخليفة عثمان بن عفان، من الضروري أن نشير إلى اللبس الذي أثير حول شخصية قيرس أو المقوقس عظيم القبط في مصر، فالبعض يرى أن الاسمين لشخص واحد كان يحكم مصر من قبل الإمبراطور هرقل، والبعض الآخر يرى أن الاسمين لشخصين مختلفين. ومن المحتمل أن يكون الرأي الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة لعدة أسباب: فمن المعروف أن هرقل قد أرسل قيرس إلى مصر لينفذ رغبة الإمبراطور في كف الجدل عن طبيعة السيد المسيح، ونشر مذهب الاتحاد الهرقلي. وتذكر المصادر العربية أن المصريين عرفوا قيرس باسم المقوقس.



أولا: كان كتاب الرسول ﷺ إليه يبدأ بـ "من محمد رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر. . . إلخ" كما أورده الطبرى وغيره من المؤرخين. كذلك أورد أن المقوقس أكرم بعثة النبي ﷺ، ونحن نعرف أن قيرس جاء لمصر لينشر المذهب الهرقلي، ولينهي الجدل حول طبيعة المسيح عليه السلام. ولو كان قيرس هو المقوقس لاتبع نفس ما فعله هرقل من رفضه لدعوة الرسول ﷺ وعدم إظهار تقبله.



برجي الكنيسة المعلقة المبنية على أحد أبراج حصن بابليون

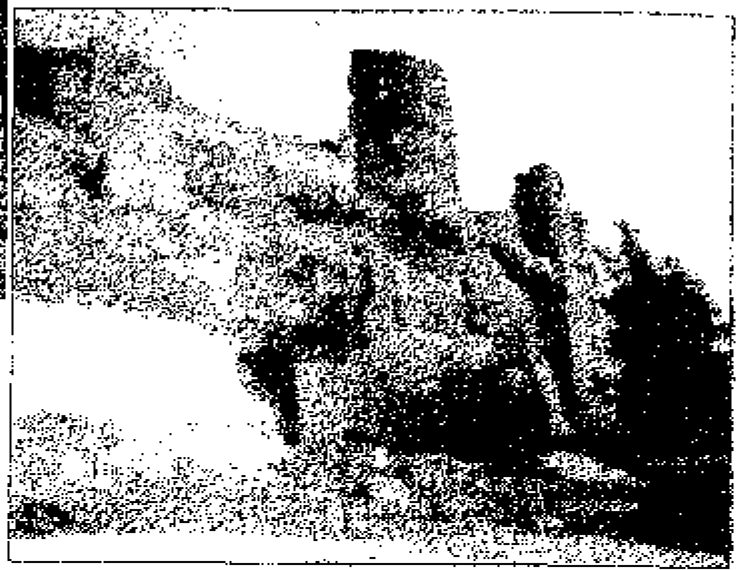
ثانيا: أن المقوقس حينما عقد الهدنة مع المسلمين نص في معاهدة الصلح على أن هذه المعاهدة خاصة بأهل مصر، أي الأقباط وليست خاصة بالروم وأهل مصر معا.

ثالثا: أن محمدا ﷺ أرسل كتابه إلى المقوقس، عظيم القبط في عام ٧هـ/ ٦٢٨م، بينما تولى قيرس بطريركية الإسكندرية عام سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م أي بعد كتاب الرسول ﷺ بأربع سنوات. وربما كان المقوقس يتزعم القبط إبان الغزو الفارسي لمصر وحتى عام ١١هـ/ ٦٣٢م.

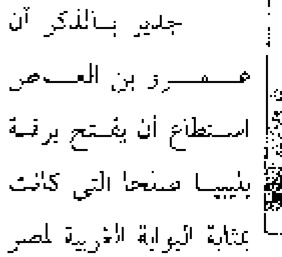
رابعا: أن المصريين يكرهون البيزنطيين أشد الكره لسوء معاملتهم لهم ولسوء أحوالهم الاقتصادية، الأمر الذي جعلهم يرحبون بقدوم العرب إلى مصر.

خامسا: كان ما يهم هرقل هو مصر وقواته من الروم فيها، وليس أهلها؛ لذا بعث إلى قيرس وعنفه على قبول دفع الجزية وعقده معاهدة صلح مع المسلمين، واستدعاه إلى القسطنطينية وأمر قواده بمعاودة القتال؛ لكن كان العرب قد استولوا على حصن بابليون Babylion وعقدوا معاهدة ثانية بالإسكندرية، أورد شروطها يوحنا النقيوسي Jean of Nikiou.





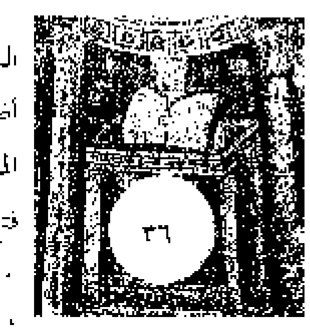
قلعة جعبر التي بناها المسلمون لمقاومة الروم في بلاد الشام



جدير بالذكر أن عمرو بن العاص استطاع أن يفتح برقة بليبيا صلحا التي كانت بمثابة البوابة الغربية لمصر وفتح طرابلس عنوة عام ٢٢هـ/ ٦٤٢م، ثم بعث نافع بن عبد القيس الفهري إلى بلاد النوبة؛ ولما ولي إمرة مصر عبد الله بن أبي السرح فكر في غزو أفريقيا، وكانت خاضعة للنفوذ البيزنطي، فاستأذن عثمان بن عفان، وأرسل إليه الخليفة جيشا ضخما يضم كثيرا من الصحابة، وسار هذا الجيش إلى أفريقية. وسرعان ما انقطعت أخباره عن مركز الخلافة فأرسل عثمان بن عفان جماعة على رأسهم عبد الله بن الزبير ليوافوه بالأخبار، واستطاع بن الزبير أن يغير ويجدد من خطة عبد الله بن أبي السرح في القتال، واستطاع المسلمون أن ينتصروا على العدو ويغنموا غنائم لا حد لها.

وتجدر الإشارة إلى أن البيزنطيين حاولوا استرداد مصر من أيدي العرب في عام ٢٥هـ/ ٦٤٥م، ففي ولاية عبد الله بن أبي السرح كتب أهل الإسكندرية إلى الإمبراطور قنسطانز يهونون عليه فتح الإسكندرية لقلة عدد الحاميات الإسلامية بها، فأرسل حملة بحرية قوامها ثلثمائة سفينة يرأسها قائده مانويل إلى الإسكندرية. وبالفعل استطاع هذا الجيش أن يستولي على الإسكندرية حتى بلغ مدينة نقيوس وعاث في الأرض فسادا؛ ودار القتال بين المسلمين والبيزنطيين برا وبحرا، إلى أن انتصر المسلمون في النهاية، وخاب أمل الإمبراطور في استرداد مصر ثانية، وهكذا ضاعت منه إلى الأبد ودخلت دار الإسلام.

أما في بلاد الشام فقد استطاع واليها معاوية بن أبي سفيان أن يثبت أقدام الإسلام والمسلمين هناك بفضل سياسته وبفضل إخضاع المدن الساحلية للمسلمين، التي كانت تتلقى العون والمدد

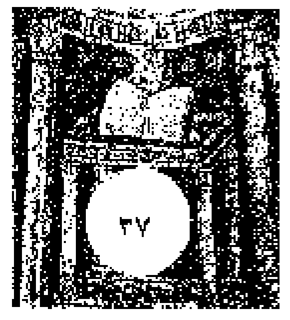


البيزنطي عبر البحر المتوسط، فكان عليه أن يسد هذه الثغرة. وبالفعل أظهر معاوية ضروبا عديدة من ضروب الشجاعة والذكاء في فتح هذه المدن مثل قيصرية، وطرابلس. وكان في كل مرة يستأذن الخليفة في فتح بقية المدن الأخرى، وقد استطاع أن يفتح قيصرية عام ١٩هـ / ٦٤٠م ثم اتجه إلى حصار مدينة عسقلان وكانت هذه المدينة ذات حصانة شديدة واستولى عليها معاوية بعد عقد صلح مع أهلها. وفي أواخر عهد الخليفة عمر بن الخطاب بدأ البيزنطيون في شن هجمات عسكرية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أملاك الإمبراطورية، إلا أن المدن الإسلامية تمكنت من صد هذه الهجمات بفضل التحصينات التي أقامها معاوية بها وبفضل شجاعة الحاميات الإسلامية.

وقد أطلق الخليفة عثمان بن عفان العنان لمعاوية بن أبي سفيان في فتح بقية مدن الشام فاتجه معاوية إلى طرابلس، وهي مدينة تمتاز بحصانة طبيعية ممتازة علاوة على الإمدادات البيزنطية لها بحرا، ثم قوة حصونها المقامة حولها، واستطاع المسلمون أن يستولوا على هذه المدينة بعد أن هرب سكانها منها من شدة الحصار الإسلامي وقسوته وكان هذا نصرا عظيما للمسلمين. وبفضل استيلاء معاوية على هذه المدن أمن الجنود المسلمون على أنفسهم ورتبوا جيوشهم. واستطاع معاوية أن يتخلص من العصبية القبلية بين المسلمين بالشام والتي كادت أن تفت في عضد الإسلام والمسلمين وبفضل دهاء معاوية وحسن تصريفه للأمور استطاع أن يوحد العرب ثانية هناك، ثم انتقل معاوية من تنظيم أهله وجيشه إلى إعداد هيئة استشارية خاصة به تقوم بتنفيذ أعماله الحربية ضد بيزنطة، وكان اختيار معاوية لهذه الشخصيات اختيارا دقيقا وصائبا، إذ جعلهم شيعة وجندا مخلصين له، ورجالا صناديد لا يعرفون غير الشام وطنا لهم.

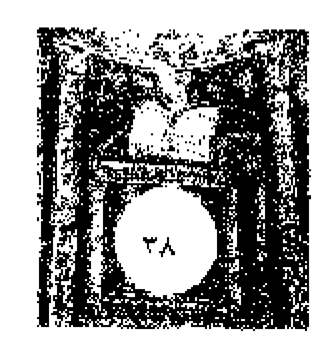
وفي تلك الأثناء مات الإمبراطور البيزنطي قسطنطين Constantine III بعد ثلاثة أشهر من حكمه للإمبراطورية وظن الناس أن مارتينا زوجة أبيه هي التي دست له السم من أجل السلطة، لهذا هب الجيش ثائرا مطالبا بتنصيب ابنه الملقب بقنسطانز Constans II على عرش الإمبراطورية، وكان عمره آنذاك أحد عشر عاما، وبالرغم من حداثة سنه إلا أنه كان يقظا نشطا.

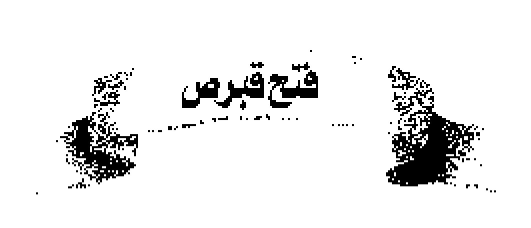
وقد وضع قنسطانز الخطر الإسلامي نصب عينيه فبدأ يأمن الجبهة الداخلية بمحاولة القضاء على المشاكل الداخلية والخارجية أيضا، فاستطاع أن يخضع قبائل السلاف مرة أخرى كمعاهدين للإمبراطورية بعد أن كانوا قد بدأوا يتمردون عليها، ثم هداه عقله إلى أن يسجن البابا لكي يحل المشكلة الدينية التي أثيرت حول طبيعة السيد المسيح.



أما عن معاوية بن أبي سفيان فيعزى إليه وضع حجر الأساس أو اللبنة الأولى لبناء الأساطيل الإسلامية البحرية، فلقد أدرك أهمية السيطرة على مياه البحر المتوسط الذي كان بمثابة بحيرة بيزنطية تجوب فيه السفن البيزنطية التي اتخذت من الجزر الموجودة به قواعد لشن الهجمات على المسلمين، التي قاسى المسلمون كثيرا في صدها، وربما استعصت بعض مدن الشام على الفتح الإسلامي لها نتيجة إمدادات الأسطول البيزنطي لها من البحر، لهذا ألح معاوية على الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان في فتح جزيرة قبرص وضمها إلى دار الإسلام إلى أن أذن له عثمان بن عفان بعد ذلك، بعد أن استطاع أن يبني أسطولا إسلاميا قويا يمخر عباب البحر المتوسط مطاردا السفن البيزنطية. وتجدر الإشارة إلى أن العرب لم يكن لهم أية دراية سابقة بشئون الأسطول ولا كيفية إدارته كنتيجة حتمية للحياة الصحراوية التي كانوا يحيون فيها ولكن الظروف التي وضعوا فيها جعلتهم يهتمون بمثل هذا النوع من الأسلحة وهو ما يسمى اليوم "بسلاح البحرية"، على الرغم من أن العرب كانوا يركبون البحر من قبل الإسلام كتجار إلى بلاد الهند وفارس في سفن تجارية.

لقد راعى معاوية منذ ولايته على الشام الاهتمام بالمدن الساحلية خاصة وتقوية حصونها وتزويد هذه المدن بالقوات المحاربة وأنشأ نظاما عرف باسم «الرباط» وهو مكان يتجمع فيه الجند والركبان استعدادا لشن هجوم على أرض العدو أو صد هجوم عليهم؛ وقد استطاع معاوية أن يطور في هذا النظام بعد ذلك، كذلك شجع الناس على الهبوط إلى المدن الساحلية ومنح كل من يرغب في الهجرة إليها إقطاعات من الأرض يديرها لحسابه، مع كل هذه الخطوات التي اتخذها معاوية منذ أن كان واليا على الشام إلى أن أصبح مؤسس أسرة حاكمة بعد ذلك، كان يرجع الفضل إلى المسلمين أنفسهم في عهدها أنهم الذين حققوا أغلى وأعظم الانتصارات في تاريخ الإسلام.

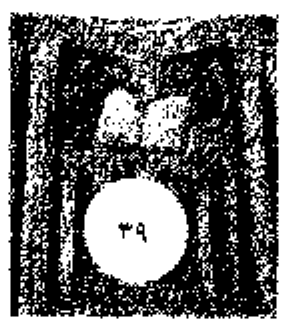




فتح قبرص

بعد أن تأكد معاوية بن أبي سفيان من استعداداته البحرية وقوة الأسطول الإسلامي الناشئ أخذ يلح على الخليفة عثمان بن عفان في فتح هذه الجزيرة الكائنة شمال البحر المتوسط بالقرب من سواحل الشام، ولكن لماذا هذه الجزيرة بالذات التي أراد معاوية فتحها؟ يبدو أن هذه الجزيرة كانت ذات مركز إستراتيجي على درجة كبيرة من الأهمية، وكانت تحت السيادة البيزنطية ومثلت معقل من معاقل الهجوم على المسلمين في الشام ومصر. وترجع أهمية الجزيرة أيضا إلى أن موقعها أتاح لها فرصة التحكم في مياه الجزء الشمالي الشرقي من البحر المتوسط وقد جعلها هذا الموقع موضع صراع بين القوى العظمى فقد جعلها البيزنطيون قاعدة عسكرية هامة لشن هجماتهم على المسلمين وتطلع المسلمون إليها ليستغلوها أيضا في هذا المضمار، علاوة على أنها كانت ذات أهمية تجارية كبيرة وأثرت كثيرا من التجارة عبر أراضيها.

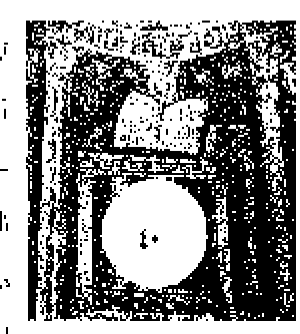
وأعد معاوية بن أبي سفيان والي الشام حملة بحرية سنة ٢٨هـ/٦٤٩م لفتح الجزيرة حيث حشد معاوية قواته في ميناء عكا، وكانت السفن كلها من مصر، على حين اشترك من الجند العربي كبار رجال الشام وغيرهم من مشاهير قادة العرب وقد اصطحب معاوية معه زوجته حسب ما أمره الخليفة، و قاحتوت الحملة على العنصر النسائي بذلك، وأبحرت الحملة البحرية وكلها أمل في تحقيق النصر ووصلت الحملة إلى أراضي قبرص بسلام محققة نصر بحرى للمسلمين. وعرض المسلمون أهدافهم على أهالي قبرص ولم يدخل أهالي قبرص في أية مفاوضات معهم تحت ضغط من البيزنطيين، فتقدمت القوات العربية نحو عاصمة الجزيرة التي تجمع بها معظم سكانها وحملوا إليها معظم ثرواتهم، وبعد مدة قصيرة من الحصار اقتحم المسلمون المدينة واستولوا على كنوزها وعدد من الأسرى، واضطر الأهالي إلى أن يدخلوا في المفاوضات مع المسلمين وعقد حاكم الجزيرة صلحا مع المسلمين على أن يدفع لهم ٧٢٠٠ دينار كجزية سنوية مثلما كانوا يدفعون للبيزنطيين، وتعهدوا أيضا بألا يمدوا بيزنطة بأية معونات بحرية، وبألا يفشوا سرا من أسرار المسلمين، وألا يخبروا البيزنطيين بأسرار وتحركات الأسطول الإسلامي، كذلك تعهدوا بأن يزودوا المسلمين بأية أنباء عن حملات الروم تجاههم. وبالفعل التزم أهالي قبرص بالمعاهدة فترة ووقفوا



موقف الحياد بين المسلمين والروم، وعاد الأسطول الإسلامي إلى سواحل الشام بعد أن نجح في تحقيق أهدافه التوسعية. وظل معاوية فترة يراقب أهالي قبرص ومدى التزامهم بتنفيذ بنود المعاهدة. ولكن في سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م أخل أهل قبرص ببنود المعاهدة وأمدوا البيزنطيين ببعض السفن البحرية التي ساعدتهم على تنفيذ هجومهم على الأراضي العربية الإسلامية، فما كان من معاوية إلا أنه جهز أسطولا ثانيا قدرت سفنه بخمسمائة سفينة واتجه الأسطول نحو الجزيرة ثانية في عام ٣٣هـ/ ٦٥٣م واستطاع أن يستولي عليها عنوة رغم أنوف أهلها، وعاد إلى سواحل الشام ثانية بعد أن ترك جيشا نظاميا إسلاميا في قبرص وأجرى لجنوده الرواتب، وشجع أهالي المدن الساحلية بالشام على الهجرة إلى قبرص لتقوية النفوذ الإسلامي بها. وأصبحت قبرص بمثابة قاعدة بحرية إسلامية لها وزنها العسكري في شرق البحر المتوسط بحيث استطاع المسلمون أن يصدوا الهجمات البيزنطية، بل ويشنوا منها هجماتهم العسكرية على أراضي بيزنطة، وهكذا فقدت القسطنطينية واحدة من معاقل الدفاع عنها وعن أملاكها والتي سهلت للمسلمين بعد ذلك الهجوم على هذه العاصمة المنيعة.

وبإغارة المسلمين على جزيرة قبرص أثبتوا أنهم على فهم ودراية كبيرين لطبيعة وأهمية الجزر التي كان يستولي عليها البيزنطيون بشرق البحر الأبيض المتوسط، إذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مراكز إستراتيجية هامة ولشل حركات الروم البحرية.

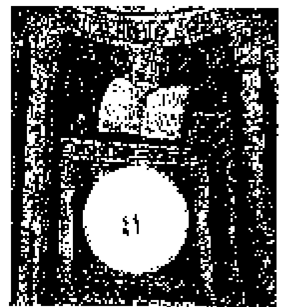
وأتاحت هذه السياسة البحرية للأسطول العربي الإسلامي ميدانا واسعا ذلك أن الجزر تنتشر في الشطر الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بحيث تقسمه إلى بحار داخلية صغيرة يتصل بعضها ببعض عن طريق مضايق وفتحات صغيرة تكفل للمسيطر عليها تمام السيادة على ما بينها من بحار داخلية؛ وما يطل على هذه البحار من آفاق وبلاد ومن ثم سارت حركات الأسطول العربي إزاء تلك الجزر حسب سياسة واضحة ومرسومة تهدف أولا إلى تأمين سلامة الفتوح العربية من الجزر القريبة والمباشرة لأراضيهم، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التي تتحكم في أكبر عدد من المضايق البحرية لصد الروم وسد الطريق في وجه هجماتهم. وقد أظهر أمراء البحر العربي شجاعة وبسالة نادرتين في هذا المضمار، ومن ذلك أنه استرعى نظر قادة العرب وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان أثناء إغاراتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعى إرواد بالقرب من ساحل الشام، ولم يكن



أول داع للأسطول العربي وهو معاوية بالشخص الذي يتهاون في ترك أي معقل للروم يهدد سلامة الإسلام والمسلمين، أو يدعم شوكة في جانب ولايته. فكانت جزيرة أرواد تتمتع بشهرة عالية منذ أقدم العصور بالرغم مما بدت عليه من ضآلة الشأن في تلك الفترة الأولى من نشاط الأسطول العربي في مياه البحر المتوسط: فقد لاحظ استرابون قديما أن أهل أرواد يحترفون القرصنة على النقيض من سائر البلاد القريبة منها والتي اتخذت لنفسها الطرق القويمة في الاشتغال بالتجارة لتدعيم رخائها الاقتصادي، فكان أهالي هذه الجزيرة يستغلون ما حباهم به الطبيعة من مركز جغرافي ممتاز في ميدان التجارة وأبدوا جميعا نهما في تنمية مواردهم الاقتصادية عن طريق ميدان القرصنة المخيف وقد جعلتهم هذه الأمور أهلا يتسمون بالغدر وبالبعد عن مواضع الثقة والتقدير.

وعقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيرة بالاستيلاء عليها فأعد الأسطول العربي لمهاجمتها سنة ٢٨هـ/٦٤٨م بعد عودته من الإغارة الأولى على جزيرة قبرص. واستطاع الأسطول الإسلامي السيطرة على شواطئ تلك الجزيرة وإنزال الجند العرب بها، ولكن أهل أرواد رفضوا الإذعان والتسليم واعتصموا بقلعة الجزيرة على الرغم من وساطة أحد الأساقفة، حيث رأى أن يبصر سكان هذه الجزيرة بمغبة الإصرار والعناد. وكانت خطة العرب البحرية تسير على أساس مسالمة أهالي جزر البحر الأبيض المتوسط أولا فإن أبوا فالقتال حتى النصر، وعادت الحملة إلى أراضيها ثانية أمام موقف أهالي الجزيرة منهم على أن يعودوا إليها في العام التالي.

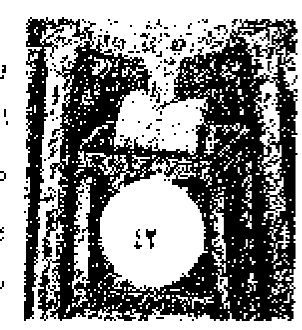
وبالفعل أعدوا حملة ثانية في العام التالي لمهاجمة جزيرة أرواد ودخلوا الجزيرة وهاجموا العاصمة وقلعتها وألزموا جميع أهاليها بإخلاء الجزيرة تماما، جزاء عنادهم الذي تجلى في مقاومتهم الشديدة في المرة السابقة، ولم يكن في هذا التصرف الذي اتخذه المسلمون شيء من التعسف وإنما جاء وليد بُعد نظرهم وفهمهم لطبيعة سكان هذه الجزيرة ووسائلهم التي اعتمدوا عليها لإنهاك مهاجميهم، فكان أهالي هذه الجزيرة يتجنبون دائما الهزائم القاصمة ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام بالمياه حتى يزول الخطر المحيق بهم، ولذا قضى المسلمون نهائيا على عناصر المقاومة في هذه الجزيرة ومناعتها وأمنوا ما قد يجيش بنفوس أهاليها من عدوان ولا سيما بعد أن كشفوا القناع عن نواياهم في وضوح وجلاء.





وهكذا، لم يقم الأسطول العربي بنشاطه البحرى المبكر عفويا أو نتيجة خطط مرتجلة وإنما سار العرب فى أعمالهم البحرية وفق سياسة واضحة المعالم تهدف أولا إلى حماية ممتلكاتهم ثم إقصاء الروم عن أى مكان تتجمع فيه أساطيلهم لمهاجمة أراضى العرب، وكانت آية هذا التفكير العربي السديد هو اتجاه الأسطول العربي للهجوم على جزيرة صقلية، إذ يبدو أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على إقليم الشام ومصر ولكن مجريات الأحداث دلت على أن صقلية غدت قاعدة لأساطيل الروم التى انسحبت من قواعدها بالشام ومصر بعد الفتح العربى لهما، ومركزا تهجم منه على العرب بحيث تشل التعاون البحرى بين أساطيلهم فى مصر والشام. وكانت صقلية بموقعها الجغرافى تتحكم فى المداخل الرئيسية الكبرى لشرقى البحر الأبيض المتوسط. إذ هى تقسم البحر الأبيض المتوسط عامة إلى قسمين رئيسين وتشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق ميسينا Misenea ومضيق صقلية الواقع بين طرف جزيرة صقلية الجنوبى وشمال إفريقيا ثم إن جزيرة صقلية تلقت من كل بلاد الروم البعيدة عن متناول الأسطول العربي، مساعدات جعلتها أعظم قاعدة لأسطول الروم فى شرق البحر الأبيض المتوسط. وكانت مصر أول من أدرك خطورة اتخاذ أساطيل الروم قاعدة لها فى صقلية، ومن ثم تكاتف الأسطول العربى المصرى والشامى فى الهجوم على تلك الجزيرة لتقليم أظافر الروم وبث الرعب فى نفوسهم. فقام الأسطول العربى من موانئ الشام تؤازره القوات البحرية المصرية سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م بمهاجمة صقلية ونزلت الحملة الحربية البحرية بالشواطئ ومعها المجانيق

كنيسة سان جوفانى بصقلية، ويظهر عليها التأثيرات الفنية الإسلامية

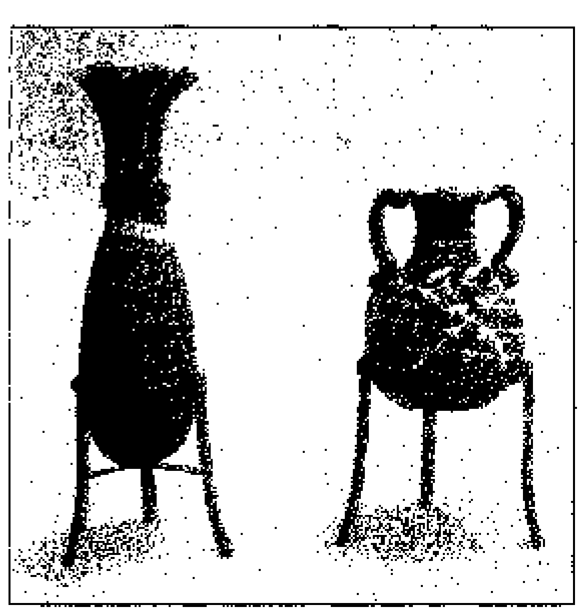


والهراوات وأعملت التدمير في حصون الجزيرة ثم هاجمت القوات الإسلامية معاقل الروم في الجزيرة وألجأت حامياتها إلى الانسحاب داخل الجزيرة ثم أتبع العرب انتصارهم بالإغارة ليلا على القرى والمدن القريبة من السواحل؛ ثم عادوا بعد هذا النصر العظيم إلى سواحل الشام. وقد توالت إغارات المسلمين بعد ذلك على جزيرة صقلية حيث خرجت وحدات الأسطول تارة من الشام وتارة أخرى من مصر حتى صار مركز أسطول الروم ضعيفا ولا تقوى سفنه على صد الأسطول الإسلامي. ومما لا شك فيه أن دخول العرب صقلية قد فتح الباب على مصراعيه لكي تنتشر الروح العربية الإسلامية بين الشعوب الأجنبية ولينتشر الإسلام في هذه البقاع من الأرض وكانت فاتحة خير للعرب، حيث خرجت ثقافتهم وحضاراتهم إلى العالم الخارجي؛ وحيث غدت صقلية فيما بعد واحدة من مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية.

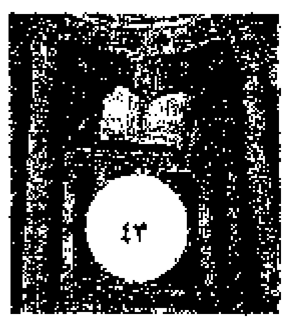


فتح رودس

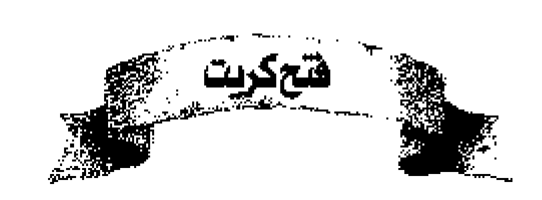
وبعد النصر الذي أحرزه الأسطول الإسلامي على الروم بصقلية في عهد عثمان بن عفان وفي ولاية معاوية بن أبي سفيان على الشام اتجه الأخير بأسطوله لإحراز نصر آخر لاستكمال السياسة التي انتهجها إزاء الروم وخاصة في المجال البحري؛ فاتجه الأسطول الإسلامي شطر رودس أهم جزر بحر إيجه وأعلاها مكانة في الدولة البيزنطية من حيث نشاطها البحري وحركة صناعة السفن بها، فهذه الجزيرة أول حلقة من حلقات سلسلة أرخبيل بحر إيجه من ناحية الشرق وتمتد



قنينات من الزجاج اشتهرت بها جزيرة رودس قديما



من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على بعد اثني عشر ميلا تقريبا من الساحل الآسيوي. وقد أهلها هذا الموقع لأن تكون خطرا جاسما على أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور الشامية، وقد بعث معاوية حملته لفتح رودس سنة ٣٣هـ/ ٦٥٣م تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدي، واستطاع هذا القائد أن يستولي على الجزيرة عنوة، ونظرا لأن هذه الجزيرة كانت من أنسب الأماكن لإقامة المسلمين، فقد أمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها وبلغ من اهتمامه بحامية رودس أنه كان يجدد أفرادها دائما ويسحب الذين قضوا بالجزيرة مدة طويلة، وذلك لكي يبقى على بأس الحامية وقوتها، وأرسل إلى المسلمين هناك الفقهاء والمعلمين لتثبيت الإسلام في قلوبهم.



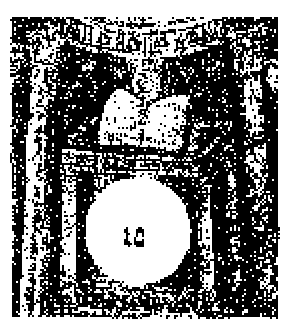
أراد معاوية أن يقطع كل الطرق على البيزنطيين فرأى أن يستولي على هذه الجزيرة لسد منافذ بحر إيجه الرئيسية في وجه البيزنطيين، وهذه الجزيرة تسيطر على بحر إيجه فأرسل معاوية أسطوله وجنوده للاستيلاء على هذه الجزيرة، ولكن جنوده لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، وربما لم تقو القوى البحرية الإسلامية الناشئة آنذاك على فتح هذه الجزيرة التي تشبث بها الروم، فاكتفى المسلمون بشن غارات هجومية عليها للبطش بالبيزنطيين فيها وإلحاق الأذى بأساطيلهم.

مما لا شك فيه أن هذه الانتصارات كلها قد زادت من قوة المسلمين وثباتهم وأوجدت عندهم الرغبة في التوسع وبسط النفوذ الإسلامي إلى أكبر حد ممكن، كذلك كتب على الإمبراطور قسطانز أن يشهد كل هذه الهزائم، التي زادته حقدا على المسلمين وتصميما على دحرهم وبدأ الصراع يأخذ أشكالا متعددة بين القوتين العظميين آنذاك إلى أن جاءت موقعة ذات الصواري البحرية والتي أنهت السيادة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط وكانت هذه واحدة من أهم أدوار المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين، فكما أن موقعة اليرموك كانت المواجهة الحقيقية الأولى بين الجيوش البرية الإسلامية والبيزنطية، أصبحت ذات الصواري المواجهة البحرية التي أنهت نفوذ بيزنطة في البحر الأبيض وحولته إلى بحيرة إسلامية كبرى كما سنرى.



معركة ذات الصواري:

كانت الانتصارات السابقة حافزا شجع معاوية على استكمال الفتوحات البحرية الإسلامية وكانت أولى الخطط التي رسمها لاستكمال هذه السياسة هي الاستيلاء على القسطنطينية ذلك المحور الذي يدير دفة الأمور في الدولة البيزنطية: ففي سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م ترامت أنباء إلى الإمبراطور قنسطانز الثاني ٢١-٤٨هـ/ ٦٤١-٦٦٨م بأن معاوية يعد العدة ويجهز أسطولا كبيرا وجيشا كثيفا لمهاجمة القسطنطينية فعمل الإمبراطور قنسطانز الثاني على أن يتلافى هذا الخطر المقبل؛ وعول على الخروج قاصدا الشام ليدمر الأساطيل الإسلامية قبل إبحارها من قواعدها. وفي الفترة التي أسرع فيها قنسطانز بإعداد سفنه الحربية نشط وكلاء الدولة البيزنطية بالشام لعرقلة الاستعدادات الإسلامية، وقد نجح هؤلاء العملاء في تدمير المعدات الإسلامية التي حشدها معاوية في طرابلس وأطلقوا الأسرى من السجون ثم فروا إلى آسيا الصغرى. لكن تمكن معاوية من إصلاح كل هذا وأعد آلات الحرب ثانية وسير معاوية على رأس قواته البرية سنة ٣٤هـ / ٦٥٤م إلى مدينة قيصرية بآسيا الصغرى على حين وصلت سفنا حربية من مصر إلى سواحل الشام وانضمت إلى الأسطول الإسلامي على أن الأسطول الإسلامي توقف قرب سواحل ليكيا عند فوينكس Phoenix حيث بلغه نبأ اقتراب الأسطول البيزنطي وعلى رأسه الإمبراطور نفسه، أما عن الأسطول الإسلامي فكان تحت قيادة عبد الله بن أبي السرح، وظهر أسطول الروم أمام المسلمين، وقد راعهم منظر سفنه التي كثرت صواريها وربما وقع شيء من الرهبة في نفوس المسلمين فقد جاء قنسطانز عاقدا العزم على ضرب المسلمين تماما وإلى الأبد. وكانت الرياح في ذلك اليوم غير مستقرة فلم يلتق الفريقان إلا في اليوم التالي وقضوا ليلتهم حسب طقوس كل فريق، فعن المسلمين يقال أنهم ظلوا يصلون ويتعبدون طيلة الليل، أما البيزنطيون يقال أنهم أخذوا يدقون النواقيس استعدادا للحرب. واشتبك الفريقان في الصباح وأخذ رجال الأسطول الإسلامي يقذفون السفن البيزنطية بالسهام والنبال إلى أن فرغت ذخيرتهم، وذلك لأن السفن البيزنطية كانت تتعمد البعد عن مرمى السفن الإسلامية من باب المراوغة، وبدا المسلمون يقذفون الأحجار على العدو وأدرك قنسطانز أنه سائر نحو النصر، ولكن سرعان ما لجأ المسلمون إلى حيلة وهي أنهم ربطوا سفنهم بعضها إلى البعض ورموا الكلاليب والخطاطيف على السفن البيزنطية وجذبوها نحوهم وأخذوا يقاتلون بالسيوف والخناجر وكأنها معركة برية. ورمى قنسطانز إلى أسر سفينة القيادة الإسلامية وكاد أن ينجح لولا شجاعة أحد المسلمين ويسمى علقمة؛ حيث ضحى بنفسه في سبيل قطع السلاسل التي تجذب السفينة نحو الأسطول البيزنطي ودارت الدائرة على البيزنطيين وهزموا في هذه المعركة، وكاد الإمبراطور أن يؤسر لولا تنكره في



زى أحد قارعى الطبول وهرب من المعركة بأعجوبة فى أحد القوارب إلى جزيرة صقلية، حيث لقى مصرعه هناك على أيدى بعض الناقمين عليه، بعد أن علموا نواياه حول نقل مقر الحكم من القسطنطينية إلى صقلية. وقد تفانى المسلمون والبيزنطيون فى هذه المعركة والتى حسمت مصير البحر المتوسط ولمن السيادة فيه؟ وربما نتساءل عن مصير جيش معاوية البرية بآسيا الصغرى فنحن لا نعرف تقريبا ما قامت به ولكن يبدو أنها هدفت إلى قطع الاتصالات والإمدادات بين البيزنطيين فى البحر ومعاقلهم البرية فى آسيا الصغرى.

وكان من أهم نتائج المعركة هو اعتراف بيزنطة بالمسلمين كقوة عظمى يعنى أنه لم تعد تراود إمبراطورها فكرة القضاء على المسلمين وطردهم من المناطق التى استولوا عليها، إذ أدرك الأباطرة البيزنطيون أن مثل هذه الفكرة ضرب من ضروب الخيال، كذلك عمد كل فريق منهما إلى تقوية مناطق الثغور والتخوم ليتجنب كل منهما هجمات الآخر على أراضيه. واتجه الإمبراطور قسطانز بعد ذلك لتأديب عناصر السلاف فى البلقان لعله يجد ضالته المنشودة فى نصره على السلاف.

فى أعقاب هذا النصر دخلت الدولة الإسلامية فى فوضى مقتل الخليفة عثمان بن عفان مما ردها عن مواصلة الهجوم على الأراضى البيزنطية، كذلك فإن معاوية ابن أبى سفيان بعد تقويته لمناطق الثغور والتخوم أخذ يتجه إلى الأحداث الدائرة فى الدولة الإسلامية محاولا الإفادة منها وقد حدث هذا بالفعل حينما تولى الخلافة "على بن أبى طالب" وحدث ما سمى بفتنة على والتى انقسم العالم الإسلامى على أثرها وانغمس المسلمون فى فترة من الحروب والصراعات الداخلية التى شغلتهم عن نصرة الإسلام والخروج به إلى آفاق جديدة وأراض جديدة إلى أن انتهت هذه المحنة التى أصيب بها العالم الإسلامى وخرج معاوية بن أبى سفيان ليؤسس أسرة جديدة حملت راية الجهاد على عاتقها، والتى شهدت الفتوح الإسلامية عصرها الذهبى فى عهد مؤسسها بالشام معاوية بن أبى سفيان.

وهكذا، رأينا العديد من أدوار المواجهة العسكرية التى خاضها المسلمون والبيزنطيون، البرية منها والبحرية، ولم نتعرض للتأثيرات الحضارية والثقافية، والتى لا تقل عن المواجهة العسكرية، من حيث المجد والعظمة. والتى أثرت كلتا الحضارتين البيزنطية والإسلامية ثراء عظيما.

والآن هناك سؤال ينبغى أن نتعرض له وهو ما طبيعة التأثيرات التى أحدثها اجتياح المسلمين للعالم البيزنطى آنذاك على الإمبراطورية البيزنطية ذاتها؟

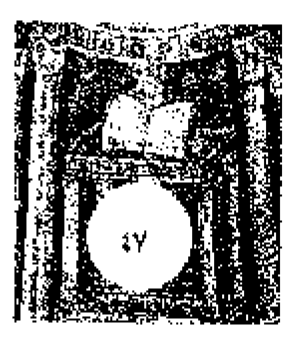
كانت الإمبراطورية البيزنطية منذ نهاية القرن السادس الميلادى وحتى بدايات القرن السابع



الميلادي تعاني من أزمة اقتصادية حادة، نجمت عن الحروب التي خاضها الأباطرة السابقون أمثال الإمبراطور جستنيان ٥٢٧-٥٦٥م والإمبراطور موريس ٥٨٢-٦٠٢م، مع أعداء الإمبراطورية البيزنطية شرقا وغربا، الفرس والقوط الشرقيون والقوط الغربيون والوندال والآفار والقبائل السلافية.

وإذا كان الإمبراطور موريس قد حاول إجراء بعض الإصلاحات الداخلية للنهوض بدولته وبجيشه، إلا أن خاتمته المؤلمة كانت أكبر رد داخلي على من يريد القيام بإصلاحات جذرية لإصلاح المؤسسات الداخلية في بيزنطة، فقد فقد الإمبراطور موريس حياته، بل وراحت أسرته ضحية الإصلاح الذي حاول القيام به، وكان من أبرز سمات ذلك الإصلاح أنه حاول تخليص الخزانة الإمبراطورية من عبء المرتبات التي كانت تدفع للمرتزقة للدفاع عن حدود الإمبراطورية؛ حيث سعى حثيثا للاعتماد على العنصر الوطني كقاعدة للتجنيد، وأمر قواته، لاسيما المرابطة على الدانوب، بالاعتماد على الموارد المحلية هناك كمصدر للإعاشة بدلا من الميرة والرواتب التي كانت ترسل من القسطنطينية، بل وصل به الحد إلى قيامه بالحد من ظاهرة الرهبانية التي لجأ إليها السكان للهروب من التجنيد.

قبر عثمان بن عفان بالمدينة المنورة







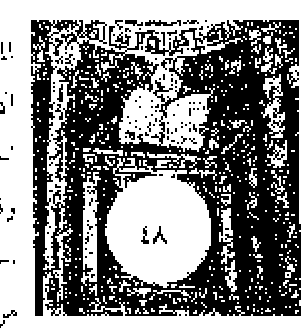
عملة عليها صورة الإمبراطور هرقل

وازداد الطين بلة في الإدارة البيزنطية عندما تولى فوقاس الحكم ٦٠٢-٦١٠م؛ وانهار الجيش والمؤسسات العسكرية، وخلت الخزانة الإمبراطورية من الأموال اللازمة للذود عن حدود الإمبراطورية، لاسيما وأن الفرس المطالبين بالثأر لصديقهم الإمبراطور موريس، انسالوا إلى أراضي الإمبراطورية فاقتطعوا منها أغنى ولاياتها؛ حيث احتلوا آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ومصر. وإذا كان الإمبراطور هرقل ٦١٠-٦٤١م قد استطاع أن يذود عن حدود دولته وأن يطرد الفرس من بلاده، بل ويدخل إلى العاصمة الفارسية نفسها بقواته، فإنه لم يكن في حسبانه أن التأثيرات التي سيحدثها ظهور المسلمين في المنطقة سوف يكون لها آثار أكثر عمقا من الاحتلال الفارسي لأراضي بيزنطة إبان حكم فوقاس. فقد انتزع المسلمون بلاد الشام من أيدي البيزنطيين، ثم تلاها فتح مصر ثم ولاية إفريقية. وهكذا فقدت بيزنطة أغنى ولايات الشرق مصر وبلاد الشام؛ وتوقفت شحنات القمح التي كانت ترسل من مصر إلى القسطنطينية واضطربت التجارة المارة عبر أراضي مصر أو عبر أراضي بلاد الشام إلى القسطنطينية، الأمر الذي نجم عنه حدوث بعض الاختناقات الاقتصادية في القسطنطينية، مما دفع بالإمبراطور هرقل إلى القيام بعدة إصلاحات جذرية للنهوض بالمؤسسات الاقتصادية والعسكرية في دولته.



تشكيل فيلق روماني

واعتمدت فكرة الإصلاح التي قام بها الإمبراطور هرقل على ركيزة أساسية وهي استغلال الأرض إلى أقصى درجة ممكنة، فأمر بتقسيم أراضي الإمبراطورية البيزنطية إلى مساحات متباينة؛ على أن توزع هذه



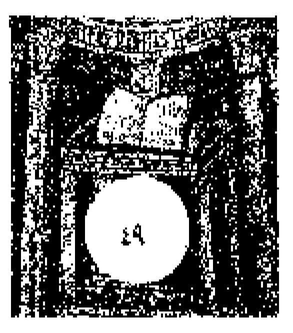
المساحات على الجند، كل حسب حاجته، مقابل التزام من حاز هذه الأراضى بأداء الخدمة العسكرية كفارس فى الجيش البيزنطى عند وقت الحاجة. وهكذا، أصبح الجنود البيزنطيون فلاحين عاملين بالأرض فى وقت السلم، مقاتلون أشداء عندما تنطلق أبواق القتال؛ وفى هذه الحالة كان على أسرة المقاتل أن تتولى رعاية هذه الأرض حتى يعود من الحرب؛ وإذا قدر له أن يقتل فى المعركة كان على أسرته؛ إذا ما أرادت الاحتفاظ بالأرض، أن تقدم أحد أبنائه عوضا عن أبيه للقيام بالخدمة العسكرية، أو أن تقدم فارسا مجهزا على نفقتها الخاصة، هكذا عرف هذا النظام باسم "الاستراتيوتيكا كتيماتا"، ويمكن ترجمتها باسم "الأراضى العسكرية الموقوفة".

لم يكن هذا هو الإصلاح الوحيد الذى أجراه الإمبراطور هرقل وطوره مع ظهور المسلمين، بل قام بإعادة توزيع الفيالق العسكرية فى الأقاليم البيزنطية، وجعل حاكم الإقليم، وهو فى نفس الوقت قائد الجيش المحلى، يجمع فى كلتا يديه الإدارة العسكرية والمدنية فى آن واحد؛ وهو النظام المعروف باسم "الأقاليم العسكرية" أو "الثيماتا" بلغة المصادر البيزنطية، وبهذا صار العنصر الوطنى هو الأساس الذى أصبح قاعدة لا للتجنيد فى الجيش فحسب، بل لتنمية الاقتصاد البيزنطى المتداعى فى ذلك الوقت.

وتجدر الإشارة إلى شهادة الإمبراطور قسطنطين السابع، الذى يعزو قيام هذا النظام "نظام الأقاليم العسكرية" إلى الإمبراطور هرقل؛ وذلك فى كتابه المعروف باسم De Thematibus.

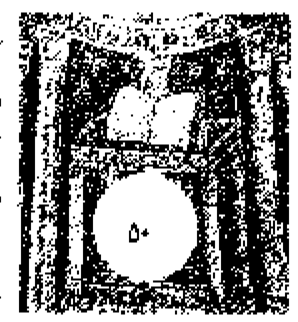
وجدير بالذكر، أن كلمة ثيم أو ثيما Θημα كانت تعنى فى البداية فرقة عسكرية أو فيلقا من الجند، متمركزة فى أحد أقاليم الإمبراطورية، ثم بدأ اسم الفرقة أو الفيلق وكذلك المصطلح العسكرى ينتقل تدريجيا إلى الإقليم نفسه الذى تقيم به هذه الفرقة أو الفيلق، وحمل الإقليم الاسم الجديد له ثيما بدلا من مقاطعة أو أبرشية Eparchia. ومن ثم أصبحت الكلمة الأولى مستخدمة فى المصادر البيزنطية لتشير إلى الأقاليم الإدارية التى تقيم بها الفيالق؛ أو الفرق العسكرية. وأصبحت كلمة ثيما فى القرن التاسع، تحمل إلى جانب معناها الإدارى والجغرافى معنا عسكريا محضا، يعبر عن فرقة أو فيلق عسكرى مكون من عدد معين من المحاربين، يأتمر بأمر ضابط ذى رتبة عالية، وهو الاستراتيجوس. وعلى هذا فقد آثرنا أن نترجم كلمة ثيم "بالإقليم العسكرى"؛ لأن هذه الأقاليم كان يغلب عليها الطابع العسكرى كما سنرى؛ ولأن حاكمها كان يحمل لقب استراتيجوس، الذى يعنى باليونانية قائد عسكرى.

كيفما كان الأمر، أشار المؤرخ شتين Stien إلى أن الجهود التى بذلها الإمبراطور هرقل فى تنظيم الأقاليم العسكرية تتفق مع الإصلاحات التى تم تحقيقها فى إمبراطورية الساسانيين أثناء



القرن السادس الميلادي، على يد بعض ملوكها أمثال قباذ، وكسرى أنوشروان الأول، إذ طبع هذان الملكان إدارة الإمبراطورية الفارسية بالطابع العسكري تماما. وقد أراد هرقل أن يسير على نهجهما قبل أن يبدأ حملاته على فارس، فدرس بعناية شديدة تنظيم دولة الأعداء وأسرع بتقليده وفق ما تيسر له في الحصول على بعض المصادر من الأرشيف الفارسي. وهذا ما جعل المؤرخ داركو يعتقد أن ثمة تأثرا بالنظم الطورانية، جعل البيزنطيين يستلهمون نظام الأقاليم العسكرية من الفرس؛ أما أوستروجورسكي وبرتوسي فقد رفضا ما افترضه شتين وداركو؛ لأنه كما هو واضح ذلك النظام يرتبط ببعض مؤسسات الإمبراطورية الرومانية المتأخرة أو البيزنطية الباكرة. ومن خلال ذلك ينبغي علينا أن نوضح علاقة نظام الأقاليم العسكرية الجديد بالمؤسسات الأولى التي قصدها أوستروجورسكي، فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي تنقسم إلى مجموعة من القيادات العسكرية، يتولى قيادة كل منها أحد القادة العسكريين Militum Magis-tri، فكان في الشرق القائد العسكري العام للشرق، ثم القائد العسكري العام لأرمينية: الذي أنشأه جستنيان. وكان في الغرب القائد العسكري العام لتراقيا، وأخيرا القائد العسكري العام لإيلليريا؛ وأضاف جستنيان إليها للدفاع عن فتوحاته الجديدة، القائد العسكري العام لإفريقية، ولإيطاليا أيضا؛ أما في القسطنطينية ذاتها فكان بها القائد العسكري لقوات العاصمة.

وقد عاشت هذه النظم طويلا، وكان هناك قادة الشرق العسكريون في تراقيا وفي أرمينية، وفي إفريقية وإيطاليا تحت حكم الإمبراطور موريس(٥٨٢-٦٠٢م)، ومن بعده الإمبراطور فوقاس(٦٠٢-٦١٠م). ويرى شارل ديل أنه منذ عصر جستنيان، كانت توجد، وبنفس الامتداد الإقليمي، القيادات العسكرية للقرن السابع، ولا يتردد في الاعتراف بوجود رابطة. ويؤيد داركو المؤرخ شارل ديل بجعله قادة جستنيان العسكريين أسلافا لقادة Strategi هرقل، فعلى سبيل المثال، كان القائد العسكري العام لأرمينية هو القلب المحرك لاستراتيجوس إقليم الأرمنياق في القرن السابع، على حد قول ديل. ولكن منذ نهاية القرن السادس أوجد الإمبراطور موريس نظاما دفاعيا كان له أبلغ الأثر في مواجهة هجمات اللومبارديين في إيطاليا والبربر في إفريقية. فقامت بذلك أرخونية رافنا، ومن بعدها أرخونية إفريقية. وجمع هذا الأرخون إلى جانب سلطته العسكرية اختصاصات الإدارة المدنية، فكان له الإشراف التام على كل مرافق الولاية وعلى مواطنيها بما فيهم الحاكم المدني. وبهذا النظام تم إلغاء الفصل الواضح بين السلطة الإدارية والسلطة العسكرية في حكم الولايات، والعمل على توحيدها في يد شخص واحد. وهذا ما تم بالضبط فيما بعد في الأقاليم العسكرية المختلفة. إذ كان كبار القادة في الإدارة المدنية القديمة يفقدون يوما بعد يوم أهميتهم الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها في الماضي في مواجهة قادة فرق الجيش الأقرباء،

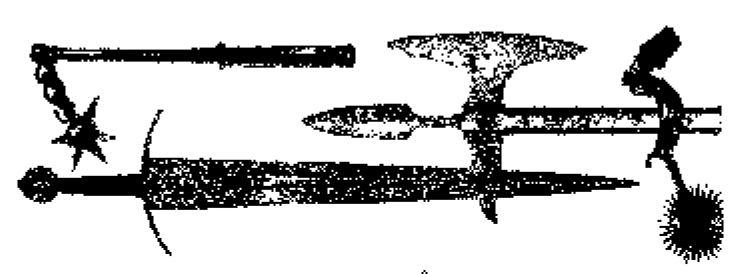


كما أن المناطق المدنية القديمة راحت تدريجيا تتجمع تحت سلطة القائد العسكرى الذى يدافع عنها. وهذا ما جعل بعض المؤرخين يرون أن أرخونيتي رافنا وافريقية ينبغى أن تدرس على أنهما البداية الحقيقية لتنظيم الثيمات، الذى بدأ ينتشر فى شتى أنحاء الإمبراطورية بدءا من القرن السابع الميلادي، بينما يرى البعض الآخر أن الإمبراطور هرقل قد طور هذا النظام(نظام الأرخونية)، وطبقه على آسيا الصغرى تحت مسمى الثيمات. ويمضى جنكيتز أكثر من هذا ويحدد أن هذا النظام طبقه هرقل بنجاح ويتعمد منه على آسيا الصغرى، فى الفترة من ٦١٩-٦٢٢م، مغيرا فقط بعضا من المصطلحات اللاتينية الباقية.

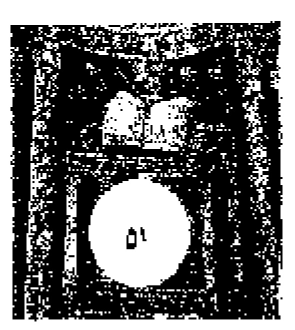
ويؤيد المؤلف هذا الرأى؛ لأن الإمبراطور هرقل هو ابن هرقل حاكم إفريقية وقائد قواتها، وقد عرف كل شىء عن نظام الأرخونية، وأدرك بثاقب بصره نجاح ذلك النظام ورخاؤه الاقتصادى، ولعل هذا ما دفعه إلى التفكير فى أن ينقل عاصمته فى عام ٦١٨م إلى قرطاجة. وبناء عليه، ربما يكون قد شعر بأن هذا النظام هو الذى تحتاجه الإمبراطورية فى الأوقات العصيبة التى كانت تمر بها. فقد حثه الحروب المستمرة مع الفرس والأخطار الناجمة عن الأفار والسلاف على أسبه فى تطبيق هذا النظام الذى يعرفه، والذى يصحح نقاط الضعف فى الإدارة. كما أنه يكفل لها الدفاع عن الإمبراطورية.

وعلى ذلك يكون نظام الأقاليم العسكرية ("البيزنطى الطابع) قد حمل بين ثناياه بعضا من آثار الأرخونية التى حملها هرقل معه من افريقية إلى القسطنطينية؛ ويعتبر فى نفس الوقت خيطا رفيعا يربط بين النظامين القديم والحديث (الأرخونية - الثيم) على الأقل فى المراحل الأولى لتطبيق هذا النظام، على عهد الإمبراطور هرقل ولكن سرعان ما تهتك هذا الخيط بصفة خاصة فى القرنين الثامن والتاسع من الميلاد عندما تأكدت الصفة البيزنطية للإمبراطورية، ومن ثم انتقلت بدورها إلى كل مؤسساتها، لاسيما النظم العسكرية والإدارية بصفة خاصة.

جدير بالذكر: أن الأقاليم العسكرية لم تنشأ جميعها فى تاريخ واحد، بل نتيجة لضروريات معينة أدت - طبقا لحالة الإقليم - إلى تطبيقات متوالية، إلا أنها كانت قليلة العدد فى أول الأمر.



أسلحة رومانية





جندي رومي

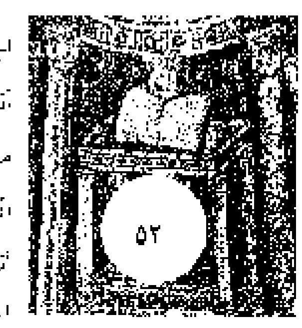
ونفسـر أسمـاء الأقـاليم العسكرية الجديدة الآسيوية نفسها بسهولة، فكان إقليما الأناضولي، والأرمنيـاق الكبيـران: همـا الإقليمـان اللذان يحميانهمـا جيش الشرق، وجيش أرمينية، ولما كـان الأصل في هذا النظام هو إنزال فرق معينة، أي تجمعات نظامية معـينة من الكتـائب للدفاع عن نواح مـعينة، فـإن هذه النواحي سـميت باسم الثيمـات Themes، ومن ثم كان كل إقليم في البداية يسمي باسم الفرقة التي ترابط فيه، مثل فرقة الأوبتيماطي، أو فرقة البقلارية. وفيما بعـد عندما كانت الإمبـراطورية تسترد مناطق جـديدة من أعـدائهـا، كـانت ترفـعهـا إلى مـرتبـة الإقليم العـسكري، وأطلقت على هذه الفرق (الثيـمات) الأخيرة أسـماء جغرافـية مثل الثيـم الخرشني، أو السلوقي حسب العواصم التـابعة لها؛ أو الثيم القبادوقي أو البيلوبونيزي حسب الاسم القديم للمقاطعة.

وكان كل حاكم من حكام هذه الأقاليم يسمي استراتيجوس، أي قائد، وقد عكس لقبهم هذا الأصل العـسكري لوظيفـتهم؛ ولكن كانت هناك استثناءات، حيث كان قـائد إقليم الأوبسيق يسمى قومس Comes، وقائد إقليم الأوبتيـماطي يسـمي دومستق؛ وكـان يوجد إلى جانبـهم في القرن السابع لقب أرخون كما كـان قائد الإقليم البحري كيرابيوت يسمى درونجير؛ وهذه الألقاب تنتمي بوضوح إلى الهرم القيادي العسكري ولا تتضمن في جوهرها أي انتساب إلى النظام المدني.

أما عن جنود الثيم فـقد كانوا ينتسبون إلى طبقـة اجتماعية ثرية نسـبيا، أعلى من تلك التي للفلاحين الذين يشكلون الطبقة الدنية، وبدون أن يكون ذلك متناقضا فقد وردوا في قائمة الحاجب فيلوثيوس في المرتبة الأخيرة من مراتب الأسبقية في الإمبراطورية البيزنطية.

والآن بعد أن تعـرفنا على تاريخ نشأة الأقاليم العـسكرية، أو الثيمـات على حسب التعبير البيـزنطي، والتي نشأت نتيـجة لظهور المسلمـين في القرن السابع والحـالة الاقتصـادية المتردية التي انتابت الإمبراطورية آنذاك، قد يكون من المناسب أن نتعرف على النظام الإداري فيها..

لقد كـان الإمبراطور يعين قائد الإقليم، ومهمته الإشـراف على سائر المنطقـة الموكلة إليه عسكريا وإداريا، وبصورة شخصيـة، ومن ثم فهو الرئيس الأعلى للإقليم، وهو الذي يحكم فيالق



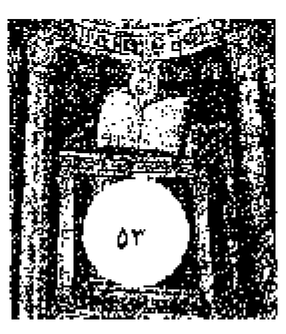
الجيش المقيمة فيه. وقائد الإقليم ممثلا للإمبراطور. بل يصل الأمر إلى أنه يقوم بدور نائب الملك في إقليمه؛ ولذلك كان على اتصال مباشر معه؛ يخضع له. وقد مارس قائد الإقليم في دائرته كافة السلطات الإدارية، كإدارة الأراضي، وإدارة العدل، والشئون المالية؛ فضلا عن أنه كان رئيسا لهيئة الشرطة، ومسئولا عن تجنيد وتسليح وتدريب الجنود في إقليمه. وكان قائد الإقليم يعين لمدة محدودة تتراوح بين ثلاث أو أربع سنوات، ولا يستطيع خلالها أن يبرح المكان دون تصريح خاص من القسطنطينية، ولا مغادرة إقليمه، إلا لأسباب عسكرية (كالمشاركة في حملة) أو لأسباب دينية (كالزيارات المقدسة). كما كان قائد الإقليم يعين مرؤسيه إما عن طريقة مباشرة، أو عن طريق الإمبراطور، بعد استشارته. وقد كانت لديه السلطة عند اللزوم أن يعزل مساعديه.

وكان لقائد الإقليم سلطة على الشعوب الأجنبية المقيمة داخل نطاق إقليمه. مثل المردة في إقليم كيبرايوت ومناطق أخرى (كيفالونيا، نيقوبولس، البيلوبونيز)، والسلاف في الأوبسيق، والسلاف في مقدونيا، والميلجين Meliggoi والـ Ezeritai في البيلوبونيز، والفالاك في الهيلاس (أي اليونان). وكان له أيضا الحق في تعيين رؤساء العشائر المقيمين في دائرة اختصاصه؛ فهو يعين أراخنة الميلجيين، وقادة السلاف في الأوبسيق، وضباط السلاف في ستريمون وتساليونيك. أما بالنسبة لقبطان المردة في أطاليه، وهو ضابط ذو رتبة عالية، فكان يتم تعيينه مباشرة من قبل الإمبراطور كأرخون الفالاك في الهيلاس.

كما كان لقائد الإقليم حق التدخل في المنازعات التي تدور بين المؤسسات الخيرية في إقليمه، وله حق إيقاف وحبس المشبوهين ومرتكبي مختلف الجرائم. كما كان يقضي في الجرائم ذات الطابع العسكري، ويصدر الأحكام فيها بمساعدة موظفي الإقليم، مثل الأشغال الشاقة في المناجم أو الحكم بالإعدام.

وبالرغم من سلطات قائد الإقليم العسكرية والمدنية الواسعة، كان يحظر عليه بشكل قاطع، أثناء تأديته لمهام وظيفته، أن يشيد أو يبني أي شيء يصلح لاستعماله الشخصي، أو يكتب ملكية دون تصريح خاص، سواء عن طريق الهبة أو الشراء. ويحظر عليه كذلك ممارسة التجارة أو أن يقرض مبالغ نقدية بفائدة، وعلى العكس، كانت كل هذه الأمور متاحة لمرؤوسيه بشرط الحصول على موافقته.

ولما كان من الممكن أن يسيء قائد الإقليم استخدام سلطته، نتيجة لأن الأقاليم كانت أقل عددا وأكثر اتساعا، فإن الحكومة المركزية وضعت بجانبه نائب عن الشئون المدنية وهو



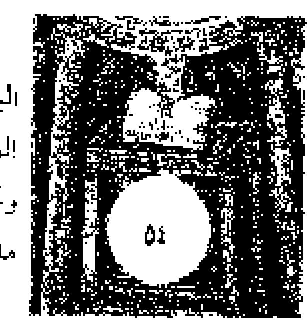
البروتنتاريوس؛ والبرايتور، أى قاضى الإقليم، وكان البروتونتاريوس المسئول عن الشئون المدنية، ويتبع كارتولاريوس الـ Sacellion وله حق فى تبادل الرسائل مع الإمبراطور مباشرة، وبالرغم من أن هذين الموظفين كانا فى بعض الأحيان تابعين لقائد الإقليم، عند وجودهما به، إلا أنهما كانا أيضا مسئولين أمام الحكومة المركزية مباشرة وكان إلى جانبيهما موظف ثالث يسمى الكارتولاريوس؛ وهو المسئول عن حفظ السجلات العسكرية فى الإقليم، والإشراف على الشئون المالية، أى دفع الرواتب للجند، وبهذا كان مسئولا أمام لغثيت الخزانة العسكرية (الاستراتيوتيكون)، برغم أنه كان يخضع لقائد الإقليم ومذكور فى هيئة موظفيه، وكثيرا ما نجد ذكرا له فى المصادر البيزنطية.

على أية حال؛ إذا كان بروتونتاريوس الإقليم والكارتولاريوس، وأيضا البرايتور يخضعون فعلا، فى بعض الظروف، لسلطة قائد الإقليم، فإنه من المؤكد أنهم كانوا يتبعون سلطة الإمبراطور بطريقة تجعله يدين لهم بوسيلة الرقابة على الإدارة والمسائل المدنية والعسكرية، على حد تعبير الإمبراطور ليو السادس ٨٨٦-٩١٢، وبذلك يكون من الواضح أن الحكومة المركزية احتفظت لنفسها بحق معين فى الإشراف، لكى تسيطر على قادة الأقاليم وتكبح جماحهم. وكان يؤكد نفس الغرض أيضا موظفون يبعثون من قبل الإدارة المركزية كمراقبين ومفتشين. كما كان الأساقفة ينصحون بأن يراقبوا الإجراءات الإدارية فى أقاليمهم.

وهكذا يكون من الواضح أن قائد الإقليم كان ذا سلطة عظمى، لاسيما وأن الإقليم الواحد كان يشمل عديدا من الأقاليم القديمة، وبالتالى اتخذت التنظيمات الإدارية الجديدة طابعا عسكريا واضحا. ولا ينبغى أن ننسى أن الأقاليم الأولى كانت فى بادئ الأمر قليلة وشاسعة، وحكامها جمعوا فى أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية. ومن الضرورى أن نشير إلى الجانب الآخر من مهام قائد الإقليم، أى إلى الجانب العسكرى؛ أو التنظيم العسكرى للأقاليم البيزنطية.

لقد تزود كل إقليم من الأقاليم البيزنطية ثيما واحدة (أى فرقة عسكرية)، قسمت بدورها، طبقا لحجمها أو وفقا لأهمية الإقليم، إلى اثنين أو ثلاث تورمات(أى لواءات) Turmai، أو أربع تورمات فى بعض الأحيان. ويقود كل تورما من هذه التورمات طورماخ، الذى كان يساعد قائد الإقليم فى قيادة جيشه ويوضع على رأس الجناح الأيمن فى التشكيل: وكانت هذه التورمات تحمى المناطق التى كان ينقسم إليها الإقليم.

وهكذا، فإن نظام الأقاليم العسكرية (نظام الثيمات)، الذى أنشأه الإمبراطور هرقل، استطاع أن يوفر خطا دفاعيا لحماية أقاليم آسيا الصغرى من المسلمين، والتصدى لكل محاولة من قبلهم لتحقيق أى وجود عسكرى لهم فى آسيا الصغرى، فكان بمثابة العمود الفقرى للدولة البيزنطية على حد تعبير أوستروجورسكى.



أما عن الجانب الإسلامي فقد أدت الهزائم التي لاقاها البيزنطيون على أيدي المسلمين من ناحية، وسقوط العديد من الولايات البيزنطية سابقا في أيديهم إلى ضرورة اهتمام المسلمين بتقوية وتحصين مناطق التخوم مع البيزنطيين؛ وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور ما يعرف باسم إقليمي الثغور والعواصم على الحدود بين الدولتين.

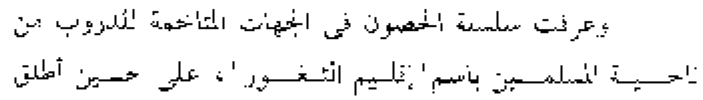
تجدر الإشارة إلى أن المناطق الحدية الواقعة بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية كانت وعرة للغاية ويصعب على القوات الإسلامية المرور منها بسلام دون وقوع كمائن أو كوارث عسكرية غير متوقعة؛ لقد كان على المسلمين أن يجتازوا بعض الدروب الجبلية في جبال طوروس لمهاجمة البيزنطيين، وأهمها ممران مشهوران يعرف الأول منهما باسم البوابات القيليقية، التي يقع على ناصيتها حصن طرسوس، والثاني يسمى درب الحدث، ويقع شمال شرقي الممر السابق؛ وهو الأصعب جغرافيا من سابقه، وفيه لاقى المسلمون عددا من الهزائم على أيدي البيزنطيين.



برج غلاطا لهداية السفن - القسطنطينية

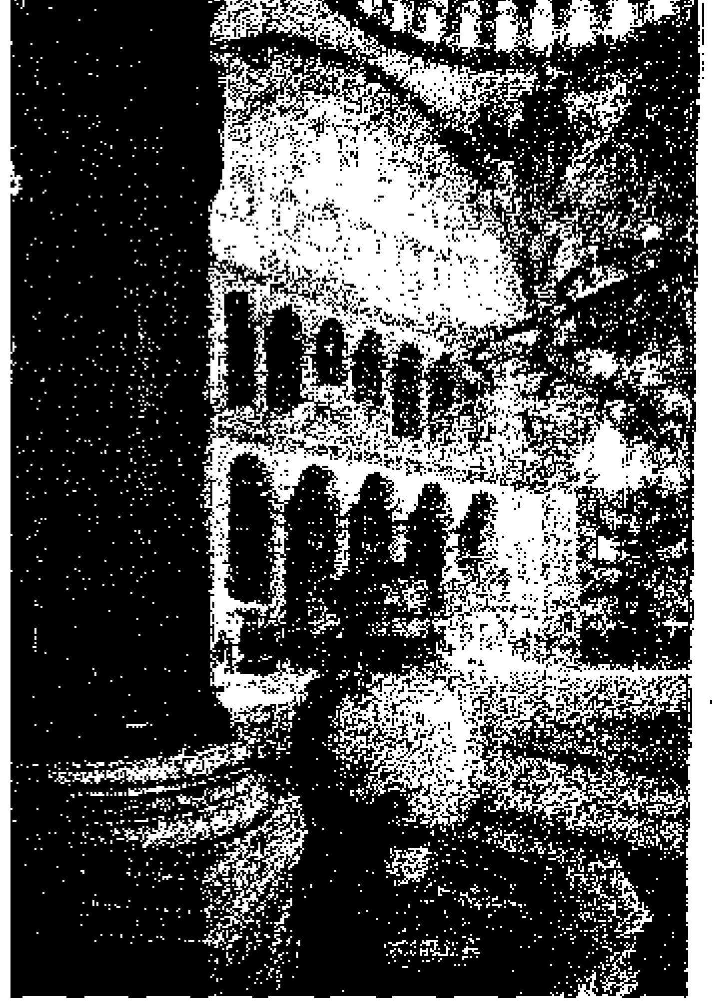
لم يلبث المسلمون أن عملوا على تلافي هذه الأخطار بترك حاميات عند المضايق الجبلية التي يتغلغلون من خلالها إلى أراضي الدولة البيزنطية، ثم قاموا بتحصين المدن التي تتحكم في هذه الممرات، فانتشرت هذه السلسلة من الحصون في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم إقليم العواصم، على عهد الخليفة هارون الرشيد، وهي المنطقة الممتدة من طرسوس إلى سميساط على نهر الفرات.

وقد اتبع معاوية بن أبي سفيان؛ منذ أن كان واليا على بلاد الشام، سياسة تعمير تلك المدن والحصون وحشدها بالمسلمين، فأغرى المسلمين على الإقامة في أنطاكية؛ حيث منحهم أراضي هناك، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم، وأكمل سياسته في تحصين المناطق الحدية بين الدولتين؛ بأن بدأ في تعمير المدن الواقعة بين الإسكندرية وطرسوس أثناء إغارته على أراضي البيزنطيين، حتى أصبحت حدود بلاد الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس، الفاصلة بين بلاد الشام والأناضول.


وعرفت سلسلة الحصون في الجهات المتاخمة للدروب من ناحية المسلمين باسم "إقليم الثغور"، على حين أطلق

اسم "العواصم" على سلسلة الحصون الواقعة فيما وراء الثغور. ولم تلبث أن اتسعت منطقة العواصم والثغور باتساع نشاط معاوية بن أبي سفيان؛ لا سيما عندما ضم إليه الخليفة عثمان شمال الجزيرة وعهد إليه بصد البيزنطيين. فأقام القبائل العربية الضاربة في شمال العراق في جهات بعيدة عن المدن المعرضة للغزو البيزنطي، ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون أشبه بالعواصم والثغور الشامية، وخصص لها حاميات دائمة للدفاع عنها من الجند النظامي للدولة.

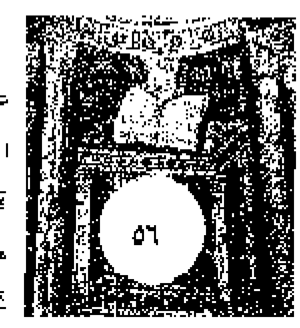
وتابع معاوية أعماله في ذلك السبيل باستكمال سيطرته على المعاقل والحصون المهمة الواقعة على المنطقة الحدية بين الدولتين، فاستولى قائده حبيب بن مسلمة الفهري على مدينة سميساط، ثم ملطية؛ التي شحنها بالجند لتصير قاعدة للهجمات الإسلامية على الأراضي البيزنطية.



واستكمل معاوية جهوده في تأمين وتحصين المنطقة الحدية بين الدولتين ببناء حصن مرعش (جرمانيكا)، وأعاد ترميم حصن الحدث، المتحكم في ممر الحدث عبر جبال طوروس؛ وأخيرا استولى معاوية على حصن زبطرة وأعاد تحصينه.

وكان من نتائج تحصين هذه الجهات أن انقسمت الحدود الإسلامية إلى قسمين: إقليم العواصم والثغور الشامية للدفاع عن بلاد الشام، والانطلاق منه إلى الأراضي البيزنطية؛ وإقليم العواصم والثغور الجزرية للدفاع عن شمال العراق، وللحملات المنطلقة منه نحو الأراضي البيزنطية.

منظر داخلي من مسجد السلطان محمد الفاتح (كنيسة آياصوفيا سابقا)

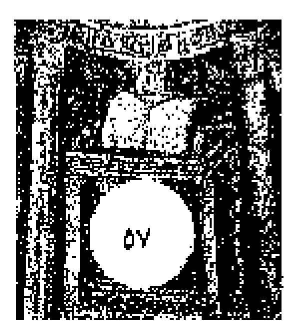


وقد أدت هذه الخطوط الدفاعية/ الهجومية الأمامية إلى ظهور ما عرف باسم "الصوائف والشواتي" في الأيديولوجية العسكرية الإسلامية، وهي عبارة عن إغارات مربحة مركزة نحو هدف معين، قد يكون واقعا على أطراف الدولة البيزنطية أو في العمق؛ وتهدف هذه الصوائف والشواتي إلى إقلاق بال البيزنطيين دائما، بصورة لا تجعلهم يجنحون إلى الراحة أو الهدوء العسكري؛ وهو الأمر الذي كان يستلزم منهم شحذ همم الجند طوال العام، المرابطة في الحصون بصورة متصلة، خوفا من تلك الصوائف والشواتي التي كان المسلمون يدفعون بها نحو أراضي بيزنطة.

وأدرك معاوية بن أبي سفيان آنذاك ضرورة الاعتماد على قادة أكفاء للقيام بأمر الصوائف والشواتي لتؤتي ثمارها المرجوة من ناحية؛ وحتى يجنب الجيوش الإسلامية خطر الهلاك على أيدي القوات البيزنطية التي كانت تجيد فن الكمائن والقتال بين المرتفعات من ناحية أخرى، فكان معاوية يستدعي القادة الأكفاء ويعقد لهم اختبارا ليقف منه على مدى قدراتهم القتالية، ثم ينتقي من بينهم أحدهم لقيادة الصائفة أو الشاتية، وبهذا أضحى ميدان الصوائف والشواتي مجالا يبدي فيه قادة المسلمين مواهبهم ويتدربون فيه على أساليب القتال. وقد برز من هؤلاء القادة مالك بن عبد الله الخثعمي، الذي لقب باسم "مالك الصوائف"؛ من حسن ما أبلاه في مجال الصوائف والشواتي في بلاد الروم. كذلك اشتهر من بين هؤلاء القادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، الذي أغار على آسيا الصغرى عام ٦٦٣م/ ٤٣هـ؛ وأسر الكثير من الروم، وخرب عددا من الحصون.

وتجدر الإشارة إلى أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد شن شاتية على أرض الروم في عام ٦٦٤م/ ٤٤هـ، انضم إلى جانبه فيها خمسة آلاف من السلاف الذين يقطنون أراضي الدولة البيزنطية، حيث اصطحبهم معه في طريق العودة إلى بلاد الشام، حيث أسكنهم في شمالها.

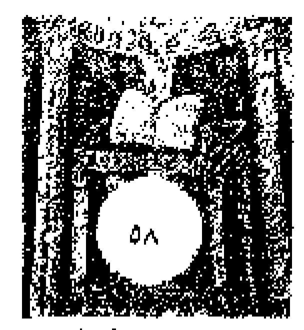
ويروي لنا قدامة بن جعفر تفاصيل غاية في الأهمية حول ماهية نظام الصوائف والشواتي التي كان يشنها المسلمون على أراضي البيزنطيين آنذاك. فيذكر أن أصحب هذه الغزوات "مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين أن تقع الغزاة التي تسمى الربيعة، لعشرة أيام تخلو من آيار، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوما، وهي بقية آيار، وعشرة من حزيران، فإنهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكنا، وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا، ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوما وهي بقية حزيران، وخمسة من تموز، حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة؛ ثم يغزون لعشر تخلو من تموز، فيقيمون إلى وقت قفولهم



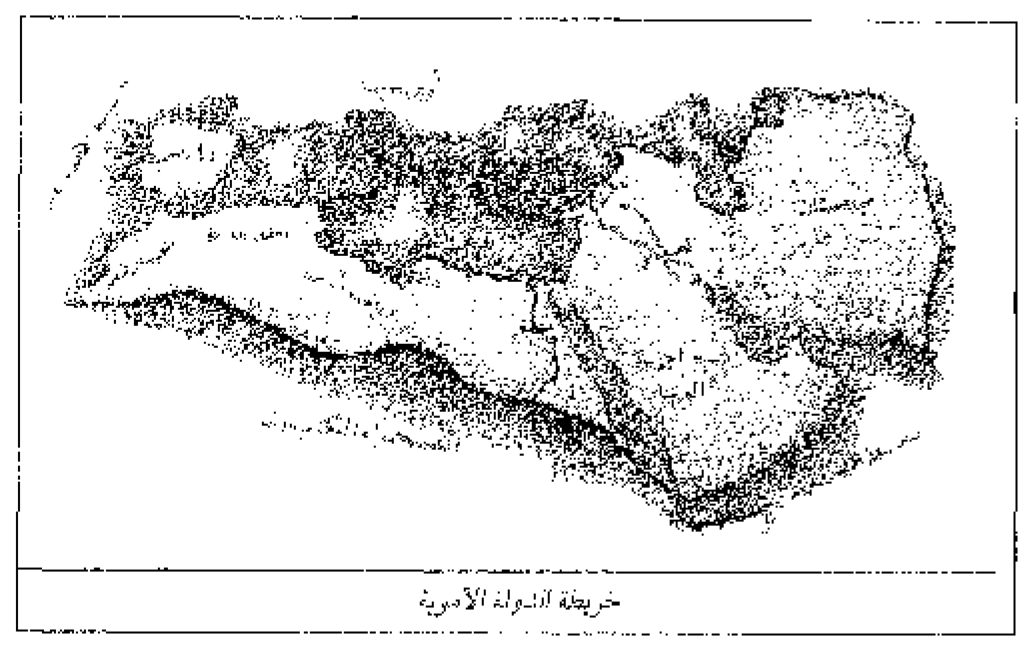
ستين يوماً. فأما الشواتي فإني رأيتهم جميعاً يقولون: إن كان لابد منه فيكون مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك في آخر شباط، فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي من آذار، فإنهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواباً، ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم ويسبقون".

على هذا النحو خص لنا قدامة بن جعفر طبيعة وماهية نظام الصوائف والشواتي، الذي كان من النتائج المباشرة لتلك المرحلة من العلاقات بين المسلمين ودولة الروم، إلى جانب إنشاء إقليمي العواصم والثغور، وبعد أن تعرفنا على بعض النتائج البارزة التي عادت على دولتي الروم والمسلمين آنذاك من جراء الاحتكاك العسكري بينهما نعاود لنستكمل الحديث عن العلاقات بينهما وإلام نمت.





بعد أن منَّ الله على المسلمين بفتح بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا وبلاد العراق وفارس، أصبح شغل معاوية بن أبي سفيان الشاغل هو غزو مدينة القسطنطينية ذاتها وفتحها وتحويلها إلى دار الإسلام؛ حيث كانت هذه المدينة ليس فقط عاصمة الدولة البيزنطية بل العاصمة الروحية لمسيحي الشرق، ودرة مدن البحر المتوسط التي تزخر بكل نفيس وغال من التجارات العالمية؛ بل لا نبالغ إذ قلنا أن القسطنطينية كانت رمزا للجمال والثراء في عالم العصور الوسطى.



خريطة الدولة الأموية

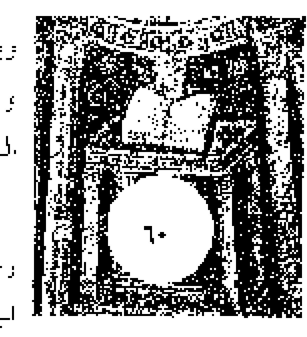
أرسل معاوية حملة استكشافية في عام ٦٦٨م / ٤٨هـ بقيادة فضالة بن عبيد الأنصاري إلى ضواحي القسطنطينية وهي التي يعتبرها المؤرخون أولى الحملات الإسلامية على القسطنطينية؛ حيث استطاع أن يصل إلى مدينة خلقدونية، وأقام بها شتاء ذلك العام؛ وكانت العمليات الحربية تتوقف خلال الشتاء نظرا للبرودة الشديدة والثلوج، فظل فضالة طوال شتاء ٦٦٨م-٦٦٩م ينظم قواته انتظارا للمدد الذي سيرسله إليه معاوية من دمشق؛ حيث أرسل معاوية إليه جيشا تولى قيادته ابنه يزيد.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحملة، التي يصنفها المؤرخون على أنها أولى الحملات الإسلامية على القسطنطينية، شارك فيها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري. خرج جيش يزيد إلى أراضي الدولة البيزنطية حيث التحم بقوات فضالة بن عبيد الأنصاري عند خلقدونية، وساروا جميعا نحو مدينة القسطنطينية، التي ألقوا الحصار عليها. وبعد أن حاصر المسلمون القسطنطينية فترة من الوقت، فكوا الحصار عنها في صيف عام ٤٩هـ/ ٦٦٩م، بعد أن لاقوا مقاومة شديدة من البيزنطيين من ناحية، ولعدم كفاءة أدوات الحصار الموجودة في حوزة المسلمين بما يتناسب مع ضخامة وحصانة أسوار المدينة من ناحية أخرى.

وليس ثمة شك أن وصول القوات الإسلامية إلى القسطنطينية وحصارها لعدة شهور قد أحدث صدمة في نفوس البيزنطيين، وكانت مفاجأة غير سارة لهم أدخلت الرعب والهلع إلى صدورهم، والأهم من كل هذا أنها نبهتهم إلى أن عاصمتهم ليست بعيدة عن أيدي المسلمين، وأنها صارت هدفا لهم. تجدر الإشارة إلى أن أبا أيوب الأنصاري قد لاقى حتفه في تلك الحملة ودفن بالقرب من أسوار القسطنطينية. وقد نال قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري قدرا كبيرا من التكريم من البيزنطيين المقيمين في أجواره، حيث كانوا يعتقدون أنه يجلب الأمطار إليهم، وتعهدوه بالترميم والإصلاح على حد قول أحد المؤرخين.

ولم تمض بضع سنوات على عودة الحملة الإسلامية الأولى على القسطنطينية حتى أتم معاوية بن أبي سفيان استعداداته العسكرية للقيام بحملة ثانية على القسطنطينية في عام ٥٤-٥٥هـ/ ٦٧٣- ٦٧٤م، هدفها الاستيلاء على مدينة القسطنطينية ذاتها. فأرسل قائده عبد الرحمن بن خالد على رأس حملة عسكرية في عام ٥٤هـ/ ٦٧٣م إلى القسطنطينية، مدعومة بأسطول بحري، حتى يتمكن المسلمون من حصار المدينة برا

ضريح أبي أيوب الأنصاري



وبحرا. وتجدر الإشارة إلى أن فصل الشتاء لعام ٥٤هـ/ ٦٧٣م قد حل والقوات الإسلامية في طريقها عبر آسيا الصغرى، فتوقفت السفن البحرية عند شاطئ فيليقيا لحين تحسن المناخ.

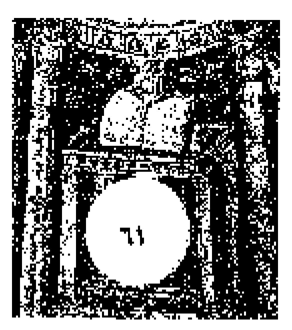
وبمطلع الربيع وصل أسطول إسلامي آخر إلى البوسفور، حيث زحفت القوات الإسلامية جميعا نحو القسطنطينية. وفي شهر أبريل اجتاز الأسطول الإسلامي مضيق الدردنيل دون مقاومة؛ في الوقت الذي تحركت فيه الجيوش البرية عبر آسيا الصغرى أيضا.

استولى المسلمون آنذاك على جزيرة ارواد (كيزيكوس) الواقعة في بحر إيجة، واتخذوها مركزا للعمليات الحربية ضد القسطنطينية. وكان الأسطول الإسلامي ينقل الجنود وينقلهم إلى القسطنطينية لحصارها برا، في الوقت الذي كان يتم الأسطول فيه حصاره البحري لها في نفس الوقت، وقد استمر الحصار الإسلامي البحري - البري منذ شهر أبريل إلى شهر سبتمبر، واستمرت معه المناوشات الحربية بين الطرفين. واضطرت السفن الإسلامية إلى العودة إلى جزيرة أرواد لقضاء الشتاء بها، ثم تعاود الحصار بعد تحسن الأحوال الجوية. وبحلول الربيع عادت السفن الإسلامية محملة بالعتاد والجند لتلقي الحصار برا وبحرا حول القسطنطينية مرة ثانية.

على هذا النحو، استمرت القوات الإسلامية في إلقاء الحصار حول أسوار القسطنطينية طوال فصلي الربيع والصيف، ورفعه في فصلي الخريف والشتاء، وذلك لمدة سبعة أعوام، إلا أنه بعد هذه السنوات السبع فشلت حملة معاوية بن أبي سفيان الثانية على القسطنطينية وعادت بقايا السفن الإسلامية بخفي حنين إلى قواعدها ببلاد الشام دون إحراز نصر عسكري يتلاءم مع سنوات سبع من الحصار والقتال مع البيزنطيين؛ على الرغم من كثرة الجند والعتاد والتسليح الجيد والقادة الأكفاء أمثال عبد الرحمن بن خالد، وسفيان بن عوف، ويزيد بن معاوية وغيرهم. ولعل فشل الحملة الإسلامية الثانية على القسطنطينية له أسبابه الوجيهة التي لا حيلة للمسلمين فيها، على الرغم من بلائهم في القتال بلاء حسنا؛ ويمكن أن نجمل هذه الأسباب فيما يلي:

أولا: سوء الأحوال الجوية والمناخ القارس البرودة؛ الذي لم يعتده المسلمون من قبل؛ حيث اضطروا إلى اللجوء إلى جزيرة كيزيكوس، وبناء أكواخ خشبية للاحتماء بها من برد الشتاء؛ بل بلغ سوء الأحوال الجوية أنهم اضطروا إلى أكل لحوم خيولهم على حد ذكر بعض المؤرخين.

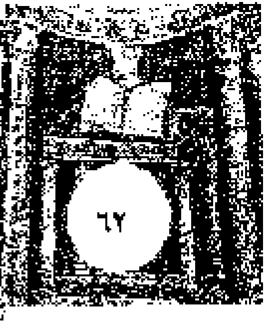
ثانيا: حصانة مدينة القسطنطينية: حيث كانت مدينة القسطنطينية محصنة بعدد من الأسوار التي يصعب اقتحامها؛ دون توافر آلات وأدوات ثقيلة للحصار ونقب الأسوار، فمن المعروف أن معظم مدن العصور الوسطى كان يتم تحصينها، طبقا لمدى أهمية تلك المدينة وساحتها وطبوغرافية المدينة أيضا. وفي حالة مدينة كالقسطنطينية، التي كانت درة مدن البحر المتوسط، وراعية المسيحية



في الشرق، ورمز الثراء في الفكر الأوروبي الوسيط، كان لابد أن تحصن بشكل غير تقليدي يقيها شر هجمات الطامعين فيها من القبائل والأمم المجاورة. فقد كانت المدينة محصنة بثلاثة أسوار برية يعلو كل منها الآخر، وهي الأسوار المعروفة باسم أسوار ثيودوسيوس؛ وكان يتخلل هذه الأسوار مجموعة كبيرة من الأبراج، ذات الطابقين والثلاثة طوابق، ويتخللها سلم داخلي لصعود الجند إلى هذه الطوابق. وأمام السور الثالث وهو الأدنى في الارتفاع، كان يوجد خندق مائي، يصعب اجتيازه. وتتخلل هذه الأسوار البرية مجموعة من البوابات لمرور السكان والجنود والجيوش الخارجة للقتال؛ كان من أشهرها تلك البوابة المعروفة باسم "باب الذهب". وعلى بعد خمسة كيلومترات من هذه الأسوار كان يقع سور أنستاسيوس الطويل، ليكون خط دفاع وعامل إعاقة أمامي للغارات المغيرة على القسطنطينية من الجانب الأوروبي.

أما من ناحية البحر فقد كانت هناك سلسلة متصلة من الأسوار التي تخرج قواعدها بصورة رأسية حادة من البحر بطول شواطئ المدينة على البوسفور، وكانت هذه الأسوار الشاهقة التي يصعب تسلقها أو خرقها، من الجرانيت المقاوم لمياه البحر، وكانت تتخللها الأبراج متعددة الطوابق أيضا، وتمتد من الجنوب حتى شمال المدينة، حيث يقع القصر الإمبراطوري المعروف باسم "قصر البلاشيرن". وحتى يُحكم البيزنطيون تحصينات المدينة، وضعوا سلسلة حديدية طويلة تمتد من الطرف الجنوبي للشاطئ الغربي لآسيا الصغرى إلى الجهة المقابلة لها على الجانب الأوروبي، أو الجانب الشرقي لشبه جزيرة البلقان، وبهذا تسد هذه السلسلة فم خليج القرن الذهبي أمام سفن الأعداء، التي تسعى إلى دخول الدردنيل لمحاصرة المدينة. وهكذا، لم يكن من السهولة بمكان على المسلمين اختراق كل هذه التحصينات، التي أخذت بمرور الزمان حصانتها ومناعتها قبل ظهور المسلمين مرارا.

ثالثا: أما العامل الثالث الذي أفضى إلى فشل الحملة الإسلامية الثانية على القسطنطينية فتمثل فيما عرف باسم "النار الإغريقية"، فقد هاجمت سفن الأسطول البيزنطي قطع الأسطول الإسلامي مرارا وكانت تقذفه بألسنة من اللهب، عبر أنابيب في مقدمة السفن البيزنطية، عرفت باسم السيفونات Siphons؛ وهذا اللهب لا ينطفئ بالماء بل يظل مشتعلا بالسفن حتى يؤتى عليها؛ وهو الأمر الذي أرهق المسلمين آنذاك وقضى على الكثير من سفنهم. بل مما زاد الأمر سوءا أن البيزنطيين كانوا يصنعون كرات من الأحجار أو الحديد تحتوي على المادة الفعالة للنار الإغريقية، يتم إشعالها وإلقائها من أعلى الأسوار على الجنود المسلمين الذين يحاصرون المدينة برا.

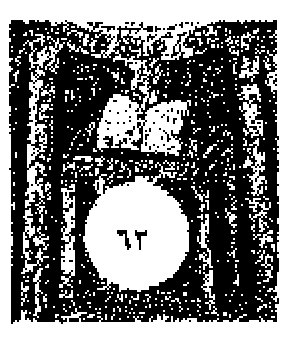
جانب من مدينة القسطنطينية، ويظهر فيه الأسوار البحرية

ويشير المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس إلى أن هذه النار كانت من ابتكار مهندس يدعى كالينيكوس، من مواليد بعلبك بلاد الشام، هاجر إلى أراضي الدولة البيزنطية هربا من المسلمين، وهناك قدم ابتكاره للإمبراطور البيزنطي، الذي اعتبره سرا من أسرار الدولة التي ينبغي الحفاظ عليها وعدم البوح بطبيعتها أو ماهيتها أو عناصرها إلى الأعداء.

رابعا: أخيرا يمكن القول أن حركة التيارات المائية في الدردنيل؛ سواء كانت التيارات السطحية للمياه أو التيارات الداخلية المعاكسة، ربما كانت عاملا أعاق حركة السفن الملاحية، لاسيما عند هبوب الرياح عليها، على أية حال، استطاع البيزنطيون وإمبراطورهم قسطنطين الرابع ٦٦٨-٦٨٥م الذود عن مدينتهم، ورد المسلمين بعيدا عن أسوار مدينتهم دون إحرازهم لنصر يذكر يتلاءم مع السنوات السبع التي قضتها الحملة الإسلامية حول القسطنطينية؛ بل طلب المسلمون الصلح مع البيزنطيين بشروط كانت جميعها في صالح البيزنطيين.

على أية حال، يعتبر موت الإمبراطور قسطنطين الرابع Constantine VI عام ٦٦هـ/ ٦٨٥م علامة فاصلة بين فترتين تاريخيتين متميزتين في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. حيث تعتبر الفترة الأولى فترة التحدي والاستجابة إذا جاز لنا القول، والتي تبتدئ بعصر الإمبراطور هرقل وتنتهي بعهد قسطنطين الرابع ٤٨-٦٦هـ/ ٦٦٨-٦٨٥م مرورا بقنسطانز الثاني Constans II ٢١-٤٨هـ/ ٦٤١-٦٦٨م.

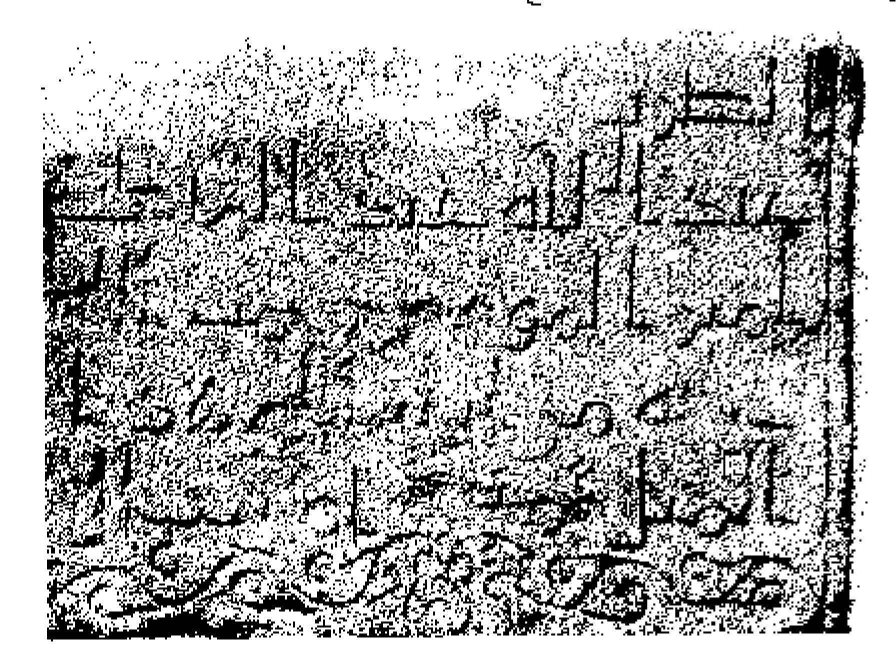
ففي الفترة الأولى منيت الإمبراطورية بضربات شديدة لا سيما على الصعيد الخارجي من جانب المسلمين، بالإضافة إلى التغلغل السلافي في البلقان المضطرب. وقد نتج عن هذه الفترة العصيبة فقدان الإمبراطورية لبلاد الشام ومصر وفلسطين وشمال إفريقيا، واستيلاء المسلمين عليها. وقد امتد التهديد الخارجي إلى قيام المسلمين بتهديد القسطنطينية ذاتها مرتين متتاليتين، كما سبق



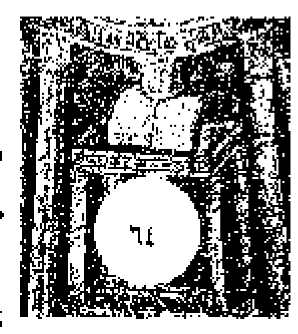
وذكرت. وقد امتدت الأخطار المحيقة بالدولة البيزنطية إلى الكيان الاجتماعي الذي كانت تعيشه لأقاليم البيزنطية. وكانت السياسة الدينية للإمبراطورية عاملا من العوامل التي زادت التمزق الاجتماعي، إذ أعلن الإمبراطور هرقل مبدأه الديني المعروف باسم المونوثليتية، أي أن للمسيح عليه السلام مشيئة واحدة فقط، وسعى إلى تطبيقه على سائر أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، رغم عدم رضى سكانها.

هذا عن الفترة الأولى، أما الفترة الثانية فتبدأ باعتلاء الإمبراطور جستنيان الثاني Justinian II عرش الإمبراطورية البيزنطية عام ٦٦-٧٦هـ/ ٦٨٥-٦٩٥م، ثم عزله وتوليه العرش ثانية عام ٨٦-٩٣هـ/ ٧٠٥-٧١١م؛ وهذه الفترة الثانية قضاها في الانتقام ممن عزلوه عن العرش الإمبراطوري وتولوا الحكم بدلا منه، ولم يكن لها من الإنجازات سواء كانت الداخلية أو الخارجية ما يجعلها تسير على نفس نهج أجداده من الأسرة الهرقلية.

وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد تمتعت بمركز قوي في الشرق فإنما يرجع ذلك إلى جهود قسطنطين الرابع، في وقت بدت فيه الخلافة الأموية وقد أعاقتها المشكلات الداخلية التي ظهرت على مسرح الأحداث بعد وفاة معاوية وانتقال الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني ثم قيام فتنة ابن الزبير. وقد حاول عبد الملك ابن مروان، الذي تولى الخلافة عام ٦٥هـ/٦٨٥م، أن يجدد معاهدة السلام التي سبق لمعاوية أن عقدها مع قسطنطين الرابع. وابتدأ جستنيان الثاني عهده بتجديد المعاهدة، وبدا للوهلة الأولى أن الاتفاقية الجديدة جاءت بفوائد مباشرة أكثر من سابقتها، وتم التوصل إلى تسوية بالنسبة للولايات المتنازع عليها وهي قبرص وأرمينيا وأيبريا، على



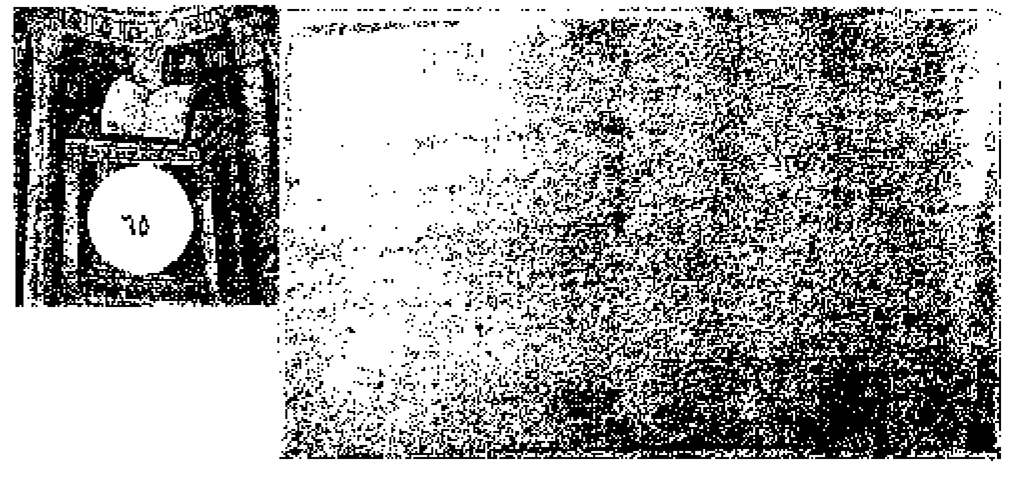
أحد أميال عبد الملك بن مروان



أساس أن يقسم دخل هذه الأقاليم بين الطرفين مناصفة؛ إلا أن الإمبراطور جستنيان وافق في مقابل هذا على نقل جماعات المردة (الجراجمة) من شمال بلاد الشام وبالتحديد من جبل اللكام بلبنان إلى داخل أراضي الإمبراطورية البيزنطية. ويشير المؤرخون إلى سوء تدبير جستنيان الثاني، عندما نقل هؤلاء المردة، الذين كانوا يشكلون سورا نحاسيا على حد قول البلاذري يصد غارات المسلمين عن بيزنطة.

وسرعان ما أدرك الإمبراطور جستنيان الثاني خطأ تشتيته المردة، واحتياج الدولة لهم حين تجددت إغارات الجيش البيزنطي بآسيا الصغرى على أراضي الحدود الإسلامية. إذ أدرك ضرورة سد الثغرة التي أحدثها نقل المردة، وعول على وضع عناصر جديدة ذات بأس وشدة في الأماكن المعرضة للخطر، لحمايتها على نحو ما فعل الجراجمة من قبل واتجهت أنظار جستنيان الثاني نحو العناصر السلافية القاطنة في البلقان. وكانت الدولة البيزنطية تدفع لهم ضريبة سنوية مقابل احتفاظهم بالهدوء والسكينة في الأراضي البيزنطية التي استقروا بها. ورأى جستنيان الفرصة مواتية للتخلص من التزاماته المالية والهجوم على هذه العناصر وأخذ عددا كبيرا منهما أسرى لإحلالهم محل المردة ونجح في مهاجمة العناصر السلافية المقيمة بالقرب من سالونيكا وأسر عددا كبيرا حملهم معه إلى آسيا الصغرى، مكونا منهم فرقة كبرى بلغت ٣٠٠٠٠ جندي، وجعل مقرها الرئيسي في المنطقة المطلة على الدردنيل، والتي عرفت إذ ذاك بثيم الأوبسيق. وكانت هذه المنطقة محط رحال القوات الإسلامية حيث عملت على إقامة نقط ارتكاز لها هناك قبل عبورها المياه لحصار القسطنطينية. وأراد جستنيان بعد ذلك شد أزر جماعات السلاف بنقل عدد كبير من أهالي جزيرة قبرص إلى ثيم الأوبسيق أيضا. وكانت خطوته تحمل في طياتها الكثير من العسف والعنت، إذ واجهت السفن التي تقل أهالي قبرص عاصفة عاتية أغرقت الكثيرين منهم، ولم ينج إلا القليل عاد أدراجه إلى جزيرة قبرص.

وسرعان ما دب الخلاف بين عبد الملك بن مروان وجستنيان الثاني حول مسألة القراطيس؛ أو الورق الذي كانت تستورده الإمبراطورية البيزنطية من الدولة الإسلامية، وتدفع مقابل ذلك دنانير بيزنطية، وهي العملة المستخدمة في التعاملات التجارية بين المسلمين. وكانت مصر هي التي تصدر القراطيس للدولة البيزنطية منذ تبعيتها لها قبل الفتح الإسلامي. وقد جرت عادة أقباط مصر على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث في رؤوس الطوامير أو قطع الورق الكبيرة. ولكن عبد الملك بن مروان رأى أن هذه الصيغة لا تتفق ومظهر الدولة الإسلامية الجديدة، فأمر أن يستبدل بهذه الصيغة عبارة "قل هو الله أحد".

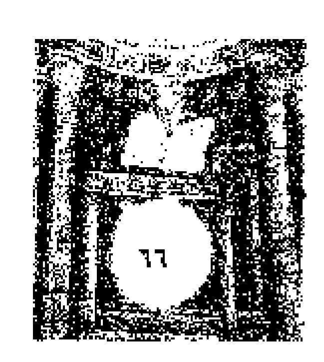


اشتهرت مصر بصناعة الورق– ووثيقة أهناسيا أول وثيقة عربية

ووصلت هذه القراطيس الجديدة إلى الإمبراطورية البيزنطية وأحدثت ضجة كبرى في البلاط البيزنطي، إذ غضب الإمبراطور جستنيان الثاني واستكبر قيام الدولة الإسلامية بهذا العمل الجديد. فكتب إلى الخليفة عبد الملك "إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً على تكرهه، فإن تركتموه، وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه" وقد أغضب هذا الخطاب الخليفة عبد الملك كثيراً، وخشي اضطراب أحوال العملة بسبب تهديد الإمبراطور البيزنطي، وما قد تحدثه من أثر سيئ في نفوس عامة المسلمين، إذ إن الدنانير البيزنطية كانت العملة الرسمية للتجارة في الأسواق الإسلامية.

وأشار خالد بن يزيد على الخليفة عبد الملك بالتمسك بالقراطيس الجديدة دون أن يخشى تهديد البيزنطيين، فقال له: "يا أمير المؤمنين حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها، واضرب للناس سككاً، ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير". وجاء هذا الحل مقنعاً للخليفة؛ ورأى أنه يصلح خطوة أساسية لصبغ الدولة الإسلامية بصبغة عربية خالصة، وخلق وحدة اقتصادية عن طريق عملة خاصة بها.

وأقبل عبد الملك على سك دنانير إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن، عرفت باسم الدنانير الدمشقية. وهكذا خلص عبد الملك الدولة الإسلامية من التبعية الاقتصادية ومن العملات الأجنبية التي كانت متداولة فيها منذ زمن بعيد، إذ كانت دنانير بيزنطة ترد إلى بلاد العرب منذ الجاهلية؛ وتعتبر العملة الأساسية في المعاملات التجارية الكبرى، على حين يستخدم الدرهم الفارسي في المعاملات المحلية. وظل أمر العملة الأجنبية معلق في الشئون التجارية الإسلامية حتى نشب الخلاف بين عبد الملك وجستنيان الثاني، حيث ضرب عملته الجديدة (سنة ٧٤–٧٥هـ/ ٦٩٣–٦٩٤م) ليتخلص من تهديد البيزنطيين.



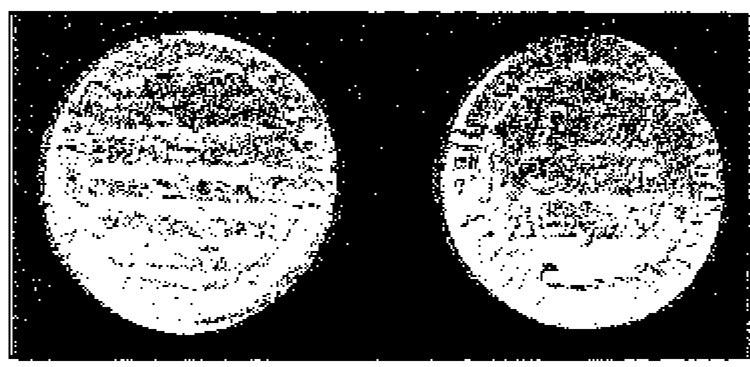




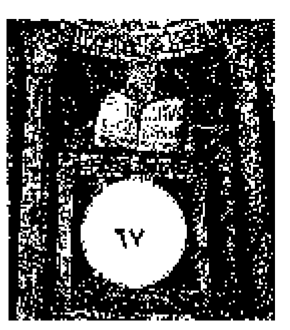
دينار بيزنطي نقش عليه: الإمبراطور جستنيان الثاني

وفي عام ٧٣هـ/ ٦٩٢م أعلن جستنيان الثاني الحرب على المسلمين، بسبب وصول الجزية السنوية، التي كان يرسلها عبد الملك بن مروان إليه نقدا نظير إبعاد المردة، في هيئة مختلفة عما كانت تسك عليه. حيث ضرب الخليفة الأموي آنذاك دينارا إسلاميا بدلا من الدينار البيزنطي، ونقش عليه عبارة لا إله إلا الله" بدلا من صور الأباطرة البيزنطيين التي كانت تسك على أحد وجهي العملة مع بعض الرموز الدينية المسيحية. وأيا كانت الأسباب، سواء الدينية أو الاقتصادية، التي دفعت جستنيان الثاني إلى الغضب وإعلان الحرب على المسلمين، فالثابت أن هذه الخطوة الجريئة التي اتخذها الأمويون كانت البداية الحقيقية للتخلص من سيطرة الدينار البيزنطي على المعاملات التجارية آنذاك، وإحلال عملة إسلامية جديدة منافسة له. وقد صادف آنذاك تخلص الخليفة عبد الملك بن مروان من مشاكله الداخلية فعمل على تلقين الإمبراطور درسا قاسيا في الحرب والقتال.

ودارت رحى القتال بين الطرفين عند مدينة سباستوبوليس، وانتهت بانتصار المسلمين، وفرار جستنيان الثاني مع بقايا قواته نحو نيقوميديا. وتجدر الإشارة إلى أن ما يقرب من عشرين ألفا من السلاف العاملين في جيش الإمبراطور البيزنطي تخلوا عنه وقت القتال وانضموا إلى جانب المسلمين، مما أوقف في غضب الإمبراطور وجعله أسير الانتقام من بقايا السلاف العاملين في جيشه. وإذا كان بعض المؤرخين يفسرون سبب انضمام السلاف إلى القوات الإسلامية بالعطاء الذي قدمه



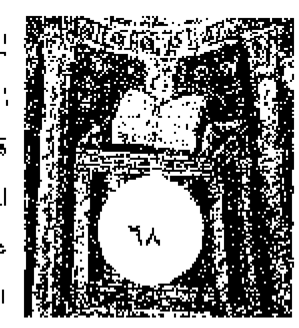
أول دينار أموي نقش عليه (١) لا إله إلا الله لا شريك له (٢) الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد- أمير المؤمنين



المسلمون إلى زعماء أونئك السلاف؛ إلا أن السبب الرئيسى الذى حدا بالسلاف إلى عمل ذلك هو سوء معاملة جستنيان الثانى لهم وتهجيرهم من شبه جزيرة البلقان بالقوة عندما غزا بلادهم فى فترة سابقة على حربه مع المسلمين، كما سبق القول، بل قام بتجنيد فرقة مختارة منهم فى الجيش وقام بتوزيع بقيتهم على الأقاليم البيزنطية ليشتت شملهم، ويضمن عدم تمردهم أو هجماتهم على القسطنطينية. وقد استفاد المسلمون كثيرا من ولاء السلاف لهم، إذ كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى والمسالك التى تصل بين مدنها المختلفة. فقاموا بوظيفة الأدلاء للجيوش الإسلامية؛ يهدونها إلى أسهل الطرق وأيسرها للاستيلاء على المعاقل الهامة بهذه البلاد؛ ولذا تابعت الجيوش الأموية انتصاراتها وإغاراتها على مدن آسيا الصغرى دون أن تلقى جهدا كبيرا.

يبدو أن هذا التوتر فى العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين، الذى مس عصب اقتصاد الدولتين، دفع المسلمين إلى استكمال مسيرة الجهاد ضد البيزنطيين فكان الوليد بن عبد الملك خير خلف لأبيه، إذ تابع الفتوحات التى بدأها أبوه فى آسيا الصغرى، وجعل هدف حركاته الحربية الاستيلاء على المعاقل الهامة الواقعة فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية. واستهل الوليد تنفيذ خطته الجديدة بحصار مدينة طوانة مفتاح الطريق الهام بين الشام والبسفور والذى تسلكه الجيوش الإسلامية فى طريقها لمهاجمة القسطنطينية. وحاصر المسلمون هذه المدينة عامين متتاليين،

المسجد الأموى بدمشق الذى أنشاه الخليفة الوليد بن عبد الملك

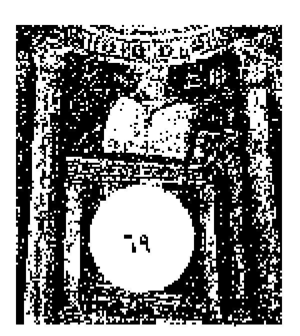


لشدة تحصيناتها ولاستماتة البيزنطيين في الدفاع عنها. وأرسل الإمبراطور جستنيان الثاني قائدين من قدة الدولة البيزنطية على رأس قوات من الجند النظامي، ومعهم عدد من الجند غير النظامي لإنقاذ المدينة وتخفيف حدة الهجوم على حامياتها، ولكن المسلمين قضوا على هذه الإمدادات، وتابعوا حصارهم للمدينة. ولم تجد الحاميات البيزنطية مفرا من التسليم بعد أن أنهك الجوع جندها وضج سكان المدينة من العناء. ودخلت القوات الإسلامية مدينة الطوانة سنة ٨٩هـ/ ٧٠٧م وأصبحوا يتحكمون في أهم معاقل إقليم قبوقيا بآسيا الصغرى.

وتابع المسلمون إغاراتهم على مدن آسيا الصغرى، وامتازت سنوات ٧١٠ م/ ٩٢هـ، ٧١١م/ ٩٣هـ بما لازم الجيوش الإسلامية من توفيق في نشر الذعر والاضطراب بين صفوف الجنود البيزنطيين. وفي سنة ٩٤هـ/ ٧١٢م وصلت الجيوش الإسلامية إلى البسفور واستولت على بعض المعاقل المهمة بالقرب منه. وكانت هذه العمليات الحربية الإسلامية حملات استطلاعية ومقدمة لزحف المباشر على العاصمة البيزنطية، وقدساهم الأسطول الإسلامي في تلك التحركات الحربية أيضا. ومن ثم عمل البيزنطيون على حمل المسلمين ودبا على إيقاف زحفهم صوب القسطنطينية. إذ أسر الأسطول البيزنطي في سنة ٩٠هـ/ ٧٠٨م خالد بن كيسان أمير البحر على السفن الإسلامية: فبادر الإمبراطور البيزنطي إلى إعادته للخليفة الوليد دليلا على رغبته في استئناف العلاقات الودية مع المسلمين.

وانتقل الخليفة الوليد بعد نجاح جيوشه في السيطرة على معاقل آسيا الصغرى الهامة إلى إعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية نفسها. وكان الإمبراطور البيزنطي إذ ذاك هو أنستاسيوس الثاني الذي أدرك الفوضى التي سادت أقاليم آسيا الصغرى الحربية. فبدأ الإمبراطور يقوى جبهة آسيا الصغرى لمواجهة الحملات الإسلامية المتكررة. وعين على ثيم الأناضول أي الإقليم الحربي العسكري الشرقي بآسيا الصغرى، قائدا واحدا سيصبح له دور هام في الأحداث التالية.

كان هذا القائد البيزنطي الجديد يدعى ليو، وهو من مواطني إقليم إيسوريا، ولكنه قضى فترة طفولته في مدينة مرعش(جرمانيكا) على الحدود الإسلامية البيزنطية. عمل في خدمة الإمبراطور جستنيان الثاني الذي أوفده إلى القبائل الضاربة على حدود الإمبراطورية في الشمال لبذر بذور التفرقة والشقاق بينها. وعاد مكللا بالنجاح من مهمته على عهد الإمبراطور انستاسيوس الثاني الذي كان يبحث عن رجال جدد يعهد إليهم بإدارة الأقاليم العسكرية في آسيا الصغرى، لا سيما بعد أن تحولت حملات المسلمين عليها إلى نشاط منظم هدفه الاستيلاء على القسطنطينية. فاختار الإمبراطور أنستاسيوس الثاني ليو ليدير إقليم الأناضول بآسيا الصغرى: ومهد بذلك لهذا القائد طريق الاحتكاك بالمسلمين خلال أحداث حصارهم الثالث لمدينة القسطنطينية.

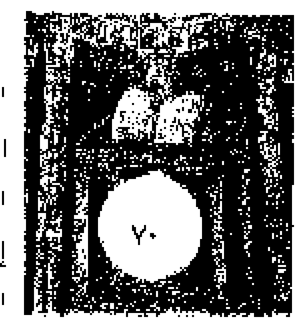


وفي الوقت الذي كان الإمبراطور البيزنطي يرفع فيه شخصية ليو إلى مسرح الأحداث، كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعد شخصية أخرى اضطلعت ببطولة الحصار الأموي الثالث لمدينة القسطنطينية. إذ عهد إلى أخيه مسلمة ابن عبد الملك بإدارة دفة الحملات الإسلامية التي استولت على معظم المعاقل البيزنطية بآسيا الصغرى، والمؤدية إلى القسطنطينية.

أقبل مسلمة بن عبد الملك على مساعدة أخيه الخليفة الوليد في تجهيز الحملة الإسلامية المتجهة إلى حصار القسطنطينية. وكانت الاستعدادات الإسلامية واسعة النطاق بحيث ترامت أنباء هذه الحملة إلى السلطات البيزنطية في العاصمة سنة ٧١٤م فأوفد الإمبراطور انستاسيوس الثاني سفارة إلى دمشق لتتباحث مع السلطات الإسلامية في شأن عقد هدنة بين الدولتين، ولكنه زود السفارة البيزنطية بتعليمات سرية تقضي بالتجسس على مدى استعداد المسلمين الحربي، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينية. وكان رئيس هذه السفارة رجلا حصيفا يدعى دانيال حاكم مدينة سينوب الواقعة على الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود، ومن الشخصيات الكبرى التي تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره.

ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق رصدت نشاط الخليفة الأموي في إعداد الجيوش لتوجيهها ضد القسطنطينية. فعادت السفارة تحمل إلى الإمبراطور البيزنطي صدق ما بلغه من أنباء، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة. ونفذ انستاسيوس تعليمات السفارة، فأعلن في القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته. ثم ملأ صوامع الإمبراطورية بكميات هائلة من القمح وغيره من الاحتياجات التي يتطلبها المدافعون عن المدينة. واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ولا سيما الجهات المطلة منها على المياه، حيث كان التداعي قد دب فيها، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من المنجنيقات وغيرها من وسائل الدفاع.

وفي تلك الفترة من الاستعدادات الإسلامية البيزنطية توفي الخليفة الوليد، ولكن المشروع الإسلامي لحصار القسطنطينية سار قدما دون أي تغيير، إذ تبناه أخوه سليمان بن عبد الملك الذي خلفه على عرش الدولة الإسلامية، فقد بلغ اهتمام المسلمين في أرجاء الدولة الإسلامية شأنا كبيرا بالمساهمة في مجهودات الخليفة سليمان. وتكاتفت مصر والشام وشمال إفريقيا على تزويد الحملة الإسلامية بكل ما تحتاج إليه من عدة وعتاد. فأبحر أسطول من مصر إلى شواطئ الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان ليصنع منها سفنا جديدة في دور الصناعة بمصر، لتعزيز الأسطول الإسلامي المتجه لحصار القسطنطينية.



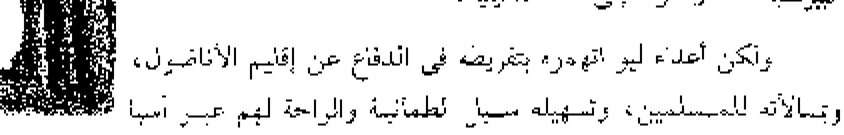
وعلم الإمبراطور انستاسيوس بأخبار نشاط المسلمين وازدياد استعداداتهم الحربية على عهد الخليفة سليمان، وآثر أن يعرقل هذه الاستعدادات، لاسيما البحرية منها. فعمد إلى مهاجمة الأسطول المصري وتخريب الأخشاب قبل وصولها إلى مصر، وعهد إلى جند إقليم الأوبسيق بتنفيذ هذه المهمة، ولكن باءت مجهودات الإمبراطور انستاسيوس الثاني بالفشل لعصيان الفرق الإمبراطورية لأوامره وكراهيتها له، إذ شقت عليه عصا الطاعة حين وصلت جزيرة رودس وهي في طريقها لمهاجمة سواحل الشام، وقتلت القائد الذي عينه الإمبراطور عليها لإدارة عمليات الهجوم، وعادت إلى القسطنطينية وعزلت الإمبراطور وعينت على العرش إمبراطورا آخر.

رأى الخليفة سليمان بن عبد الملك ملاءمة أحوال الإمبراطورية البيزنطية لحصار القسطنطينية، ولا سيما بعد أن سرى الفساد في جميع مرافقها وإدارتها. فأعد في دابق بشمال الشام معسكرا كبيرا ليكون مقرا لإدارة دفة العمليات الحربية ضد القسطنطينية وقضى الخليفة معظم وقته في هذا المعسكر ليشرف بنفسه على سير العمل فيه، "وأعطى الله عهدا أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى الروم القسطنطينية".

وفي سنة ٩٨هـ/٧١٦م تحركت الجيوش الإسلامية نحو القسطنطينية تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك أخي الخليفة نفسه. وأمر سليمان أخاه "أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره". فبعث مسلمة أحد قادته ويدعى سليمان على رأس جيش يستطلع له الطريق عبر آسيا الصغرى، وتوغل سليمان في إقليم الأناضول حتى بلغ مدينة عمورية، عاصمة الإقليم، التي كانت منذ أيام معاوية بن أبي سفيان مقصد الجيوش الإسلامية الزاحفة على القسطنطينية. وألقى سليمان الحصار على هذه المدينة، وعلم إذ ذاك أن حاكمها المدعو ليو، يدين بمركزه للإمبراطور السابق انستاسيوس، ويناهض الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث الذي تولى الحكم بالقسطنطينية.

وبدأ القائد سليمان يدبر خططا هدفها كسب ليو إلى صفه وإدخاله في تبعية المسلمين، والاستفادة من خبرته في فتح القسطنطينية. فكتب إلى ليو خطابا جاء فيه "نحن نعلم أن مآل الإمبراطورية الرومانية إليك، فاخرج لنا لنتفق على شروط الصلح". ثم أمر القوات الإسلامية المرابطة أمام أسوار عمورية بأن تهتف "يحيا الإمبراطور ليو" وأجاب ليو على خطاب سليمان متسائلا "لماذا يحاصر المسلمون مدينة عمورية إذا كانوا يريدون عقد صلح معه؟". فرد عليه سليمان مبينا، أن الحصار سيرفع عن المدينة عندما تبدأ المحادثات الرسمية بينهما".

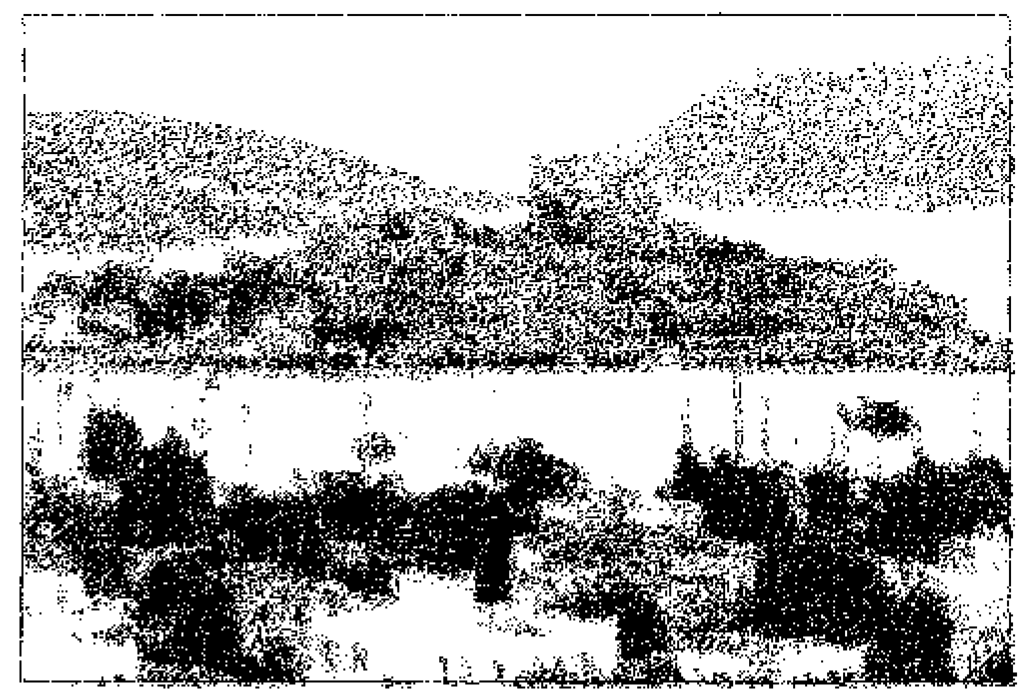
وأدرك ليو أن المسلمين سيواصلون الزحف على القسطنطينية، وأنه لابد أن يسلم لهم. فدخل ليو في مفاوضات مع المسلمين أعلن لهم فيها انضمامه إليهم، وطلب منهم رفع الحصار



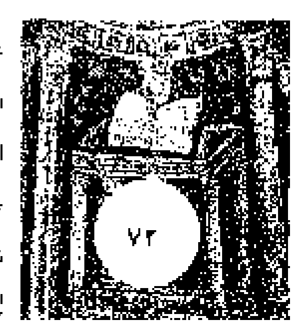
عن عمورية، ثم صاحب الجيوش الإسلامية بعد نجاح مفاوضاته قاصدا القسطنطينية. وكسب ليو من وراء ذلك ولاء أهل عمورية الذين حفظوا له تجنيبهم ويلات الحصار، ونادوا به إمبراطور على الدولة البيزنطية عند وصوله إلى القسطنطينية.

ولكن أعداء ليو اتهموه بتفريطه في الدفاع عن إقليم الأناضول، وممالأته للمسلمين، وتسهيله سبل الطمأنينة والراحة لهم عبر آسيا الصغرى. وكان هذا الاتهام عاملا جعل ليو موضع ثقة المسلمين، وسمحوا له بأن يسبقهم إلى القسطنطينية ليمهد لهم سبل الاستيلاء عليها، بعد أن رفعوا الحصار عن مدينة عمورية، عاصمة إقليم الأناضول. وبدأ ليو حينئذ ينفذ ما عزم عليه من الحصول على السلطان وعرش الإمبراطورية، فأخذ يعمل على إضعاف جبهة الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث المقيم بالقسطنطينية. وكان هذا الإمبراطور يعتمد في قوته على الجند المقيم في إقليم الأوبسيق ونصب عليها ابنه قائدا ليحقق لنفسه أسباب الطمأنينة والسلام.

ولذا ناهض ابن الإمبراطور ليو الإيسوري واستعد لصد هجومه عند مدينة نيقوميديا بآسيا الصغرى. ولكن ليو تمكن من هزيمة ابن الإمبراطور، وعبر البسفور إلى القسطنطينية. واستطاع أن يقتحم المدينة من باب الذهب ودخلها ليوطد نفوذه بها. وسرعان ما كشف عن نواياه الحقيقية



قلعة بيزنطية من القرون الوسطى على خليج دورونيوم

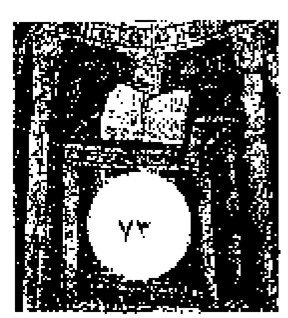


عندما احتل العاصمة، وأخذ يعمل على الوصول إلى العرش الإمبراطوري، واستغل أخبار الحملة الإسلامية وقرب وصولها إلى القسطنطينية ليجذب الأنصار حوله، فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل، وأن جيش المسلمين قوى العدة والعتاد، وأن الموقف يتطلب شخصية حازمة لمواجهة الأزمة التي توشك أن تحل بالعاصمة. وساعد ليو على نجاح دعوته العناصر الآسيوية المقيمة بالقسطنطينية، إذ انضمت إليه ونادت به إمبراطورا وكذلك قوات الأناضول التي كانت برفقته.

وفي ٢٥ مارس سنة ٧١٧م/ ٩٩هـ عقد اجتماع من كبار رجال العاصمة، قرر عزل ثيودوسيوس عن العرش وتنصيب ليو إمبراطورا تحت اسم ليو الثالث. وبذلك حقق ليو ما كانت تصبو إليه نفسه من آمال، حيث وصل إلى عرش الإمبراطورية، ولكن لم يستمتع بهذا الظفر طويلا، إذ كانت الجيوش الإسلامية تقترب حثيثا من القسطنطينية. وكان ليو يعلم الكثير عن مطامع المسلمين وأغراضهم في هذه الحملة الكبرى ولا سيما أنه صاحب جيوشها فترة من الزمن، فأسرع في تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار الإسلامي الوشيك.

كان أمام ليو فترة خمسة أشهر لإتمام استعداداته الحربية، إذ قضى المسلمون هذه الفترة في تدعيم خطوط مواصلاتهم وتأمين مؤخرتهم، فاستولى مسلمة بجيشه البالغ ٨٠,٠٠٠ جندي على مدينة برجامه، ثم عبر الدردنيل عند أبيدوس وعسكر أمام أسوار القسطنطينية في ١٥ أغسطس سنة ٧١٧م/ ٩٩هـ. وكان مسلمة يدرك أهمية تدبير مؤونة جيوشه، فأمر "كل فارس أن يحمل على عجل فرسه مدين من طعام حتى يأتي به القسطنطينية". واحتفظ بقدر كبير آخر من المؤن لتزويد جنده بها أثناء الحصار.

وبعد ستة عشر يوما من وصول مسلمة إلى أسوار القسطنطينية، دخل مياه البسفور في أول سبتمبر أسطول إسلامي كبير، مكون من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة. وأخذ مسلمة ينظم قواته لإتمام حلقة الحصار على القسطنطينية. فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية، على حين عهد سليمان أمير البحر المسلم على سد المنافذ والمسالك المائية التي يمكن أن تحصل منها العاصمة على الإمداد والمؤن، ثم حصار أسوار المدينة البحرية كذلك. فاحتل الأسطول الإسلامي مدخل البسفور الجنوبي لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة وبحر إيجه أيضا ثم انتهز أمير البحر فرصة هبوب رياح جنوبية وبعث شطرا من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالي لمنع وصول أي مدد يأتي للمدينة من البحر الأسود، ولا سيما أن شواطئه الشمالية كانت غنية بحقول القمح التي تزود القسطنطينية بالغلال.



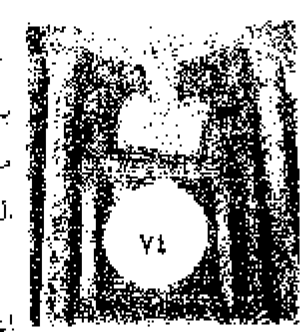
وسارت السفن الإسلامية سيرا بطيئا بسبب الرياح الناجمة عن التيار المائي الشديد الذي يتدفق من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ثم غيرت الريح اتجاهها فجأة فاختل سير السفن لسوء الأحوال الطبيعية ورداءة الملاحة في هذه المياه الإقليمية للقسطنطينية. عندئذ انتهز البيزنطيون هذه الفرصة، وبعثوا بسفنهم المزودة بالنار الإغريقية ليزيدوا من متاعب السفن الإسلامية.

وحاصر المسلمون القسطنطينية حصارا قاسيا شديدا برغم بقاء جهتها المطلة على القرن الذهبي مفتوحة. وظل الحصار مستمرا حتى جاء الشتاء، وهو قارس جدا، ويعتبر من العوامل الطبيعية الأخرى التي تعتمد عليها القسطنطينية في الدفاع عن نفسها وإطالة مدة مقاومتها، غير أن مسلمة احتاط لهذه العوامل الطبيعية وعمل بيوتا من خشب، شتا فيها وزرع الناس. وأقام بالقسطنطينية قاهرا لأهلها، ومعه وجوه أهل الشام.

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك، فجاءه أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان، وآخر من شمال إفريقيا تحت إمرة شخص يدعى يزيد. وتعاون القائدان مع مسلمة؛ لأن أمير البحر السابق سليمان توفي من قبل أثناء الشتاء. وكذلك وصلت نجدات برية بقيادة رجل يدعى مرداس، عبرت آسيا الصغرى عن طريق البوابات القيليقية وعسكرت في نيقوميديا ونيقية. وأخذت القوات الأخيرة تهاجم من شواطئ آسيا الصغرى الغربية السفن البيزنطية التي تحاول الخروج؛ طلبا للصيد أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه.

وقد استخدم المسلمون النفط آنذاك، واستعانوا بنوع أشبه بالمدفعية في حصار القسطنطينية وأبلى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية وحبهم للاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام. وظهر من الجند الإسلامي رجل يدعى عبد الله البطال، وكان كبير حراس مسلمة بن عبد الملك، أبلى في هذا الحصار بلاء حسنا أكسبه لقب زعيم الأبطال. واستشهد هذا البطل في معركة أكروينون فيما بعد (١٢٣هـ/ ٧٤٠م) بعد انتهاء الحصار الإسلامي، حيث كان دائبا على الجهاد. وعرف في القصص التي تداولت عن شجاعته باسم السيد غازي، واعتبره الأتراك فيما بعد بطلا من أبطال أمتهم. وتسرد القصص عن البطال أيضا أن البيزنطيين رسموا صورته على بعض كنائسهم لتذكير الناس بما له من بأس وسطوة بين جند المسلمين.

وفي تلك الفترة التي اشتد فيها الحصار الإسلامي لمدينة القسطنطينية، توفي الخليفة سليمان ابن عبد الملك، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز. وتردد صدى هذا التغيير في ميدان الحملة الإسلامية المحاصرة للعاصمة البيزنطية. حيث عمد عمر بن عبد العزيز إلى سحب القوات الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية، حفاظا على أرواح المسلمين. فأرسل في ١٥ أغسطس عام

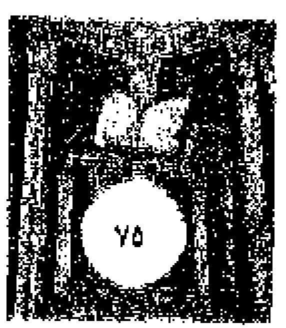


١٠٠هـ/ ٧١٨م، بعد اثنى عشر شهرا من الحصار، يطلب من مسلمة بن عبد الملك العودة بجيوشه وأساطيله إلى بلاد الشام. واستجاب مسلمة إلى أمر الخليفة وعاد بأسطوله وقواته إلى بلاد الشام دون إتمام الهدف الرئيسي من الحملة وهو فتح القسطنطينية.

وإذا كان الأمويون قد تركوا مهمة الاستيلاء على القسطنطينية لغيرهم من المسلمين، فإن جهودهم وحملاتهم على هذه العاصمة لم تضع سدى، إذ تردد صدى هذه الحملات في إقليم شمال إفريقيا، الذى اتجهت إليه جيوشهم أيضا لطرد البيزنطيين منه، وضمه إلى رقعة الإسلام، فقد صرفت أحداث الحصار الأموى للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقيا، واعتبروا حماية هذا الإقليم في المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم. وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية، حيث جعلوا من شمال إفريقيا ركنا هاما من أركان الدولة الإسلامية القوية الأوتاد.

وتجدر الإشارة إلى أن عمر بن عبد العزيز، برغم الأسباب التي ساقها المؤرخون لدوافع عمر بن عبد العزيز لعودة الحملة الإسلامية الثالثة التي خرجت لحصار القسطنطينية لقواعدها ببلاد الشام، قد أعطى الفرصة بقراره هذا للبيزنطيين ليعيدوا تنظيم صفوفهم ثانية، بعد أن شكل المسلمون عليهم ضغطا عسكريا من خلال محاولاتهم المستميتة لفتح القسطنطينية. ويكفي القول أن الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى قد اتجه بدفة الإصلاح إلى شتى أرجاء دولته، وتجلت إصلاحاته في التطورات الإدارية التي أدخلها على الثيمات، وفي الكنسيات والقوانين العسكرية والاقتصادية التي أصدرها.

لقد كان الإمبراطور ليو الثالث يدرك جيدا، بحكم التجربة، خطورة ترك أقاليم شاسعة في أيدى حكام وقادة ممن يتمتعون بقوة الشكيمة. فعمل على إنشاء إقليم عسكرى جديد سمى "إقليم التراقيسيان": اقتطع أراضيه من إقليم الأناضول الفسيح، وقد سمى بهذا الاسم نسبة إلى الجنود التراقيين الذين كانوا يرابطون به؛ كذلك أنشأ إقليما ثانيا في آسيا الصغرى عرف باسم "إقليم البقلار"، اقتطع أراضيه من إقليم الأوبسيق؛ وعرف بهذا الاسم نسبة إلى فرق البقلار التي كانت تتلقى خبزا جافا يعرف باسم البقلا وترابط في تلك المناطق، وهكذا تم زيادة عدد الأقاليم العسكرية في آسيا الصغرى، والحد من سلطات قادة الأقاليم العظام الأناضول، الأرمنياق، الأوبسيق، ولم يكتف ليو الثالث بهذا، بل قام بتقسيم الإقليم البحرى المسمى كاربيزياني إلى إقليمين بحريين هما إقليم كيبرايوت وإقليم بحر إيجة. على هذا النحو، أعاد ليو الثالث ترتيب دفاعات الإمبراطورية البيزنطية في مواجهة المسلمين في الفترة القادمة.

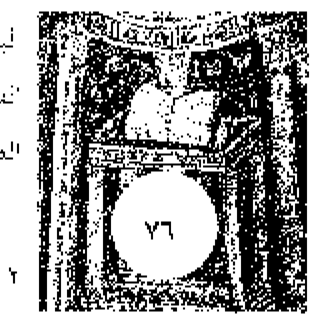


ويمكن تلخيص شخصية ليو الثالث وما أداه للإمبراطورية البيزنطية فى كلمات المؤرخ اوستروجورسكى التالية "لقد أسس الإمبراطور ليو الأيسورى أسرة جديدة، وأنقذ القسطنطينية، وأصلح الكنيسة والدولة، كما كان أول إمبراطور بيزنطى استطاع أن يوقف سيل الفتوح الإسلامية الجارفة، بخطوات مدروسة منظمة تعكس عبقرية عسكرية وكفاءة إدارية. وكان عمله الخاص بتقسيم الثيمات رائعا لأنه أعطى الجهاز الإدارى المرونة اللازمة، وأكمل خللا فى النظام العسكرى، وبعث الروح من جديد فى دفاعات بيزنطة الشرقية مكمن الخطر.

وعلى الرغم من الروح التى بثها ليو الثالث فى جسد الإمبراطورية البيزنطية إلا أن سياسة دولته لم تتحول إلى السياسة الهجومية تجاه المسلمين؛ وفى المقابل لم تتوقف الغزوات التقليدية للمسلمين والمتمثلة فى الصوائف والشواتى على أراضى الدولة البيزنطية.

وابتداء من عهد يزيد بن عبد الملك بدأت العلاقات بين المسلمين والروم تأخذ طابعا جديدا، حيث نشط البيزنطيون فى حروبهم مع المسلمين، بعد أن استقرت أحوال الإمبراطورية

مشهد عام للقسطنطينية



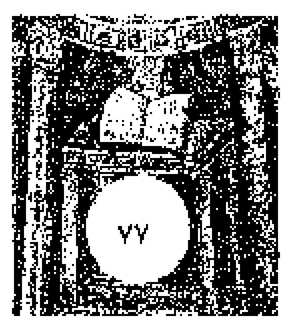
البيزنطية على عهد ليو الأيسوري، وفي تلك المرحلة من الصراع بين القوتين العظمتين، المسلمون والروم، ظهرت قوى جديدة في ذلك الصراع هما قوة الخزر والأرمن، حيث لعبا دورا بارزا بين الطرفين.

وتجدر الإشارة إلى أن الروم أغاروا على مصر بحريا في عام ١٠٢هـ/ ٧٢٠م ونزلوا إلى مدينة تنيس حيث قتلوا أميرها مزاحم بن مسلمة المرادي في جمع من أعوانه، ثم أعادوا الإغارة على مصر في عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م. ويبدو أن الخليفة هشام بن عبد الملك قد آثر الرد على هذا الهجوم بصورة سريعة، حيث أرسل جيوشا إسلامية عام ١١١هـ/ ٧٢٩م لتغزو آسيا الصغرى، حيث استطاع أخاه مسلمة بن عبد الملك أن يستولي على قيصرية آسيا الصغرى؛ بينما تمكن جيشا إسلاميا آخر بقيادة معاوية بن هشام من الوصول إلى مدينة نيقية حيث ألقى عليها الحصار، إلا أن القوات البيزنطية تمكنت من صد المسلمين عند نيقية وردهم إلى قواعدهم ثانية دون انتصارات تذكر.

وقد استمرت حلقة الصراع الحربي بين الروم والمسلمين، حيث هاجم المسلمون عام ١١٩هـ/٧٣٧م آسيا الصغرى بحملتين خرجتا من الثغور الشامية والجزرية، استطاع المسلمون من خلالها الوصول إلى برجامة، غربي آسيا الصغرى. وإزاء المد الإسلامي الحربي في بلاد الروم، لم يقف الروم مكتوفي الأيدي فشنوا حملة بحرية على مدينة بيروت عام ١٢٠هـ/ ٨٣٨م، استولوا فيها على سفن إسلامية وأسروا وسبوا.

وفي عام ١٢٢هـ/ ٧٣٩م شن الروم هجوما بحريا على الشواطئ المصرية حيث نزلوا مدينة دمياط في عهد هشام بن عبد الملك بأسطول مكون من ٣٦٠ مركبا، فقتلوا وسبوا. ومن المرجح أن ذلك الهجوم أحرز نجاحا جزئيا، نتيجة للظروف التي كانت تمر بها مصر آنذاك، عندما قام الأقباط بثورة كبرى، بالإضافة إلى هجوم أقباط النوبة على حدود مصر الجنوبية.

ويبدو أن المسلمين ردوا على الهجوم البيزنطي على مصر بشن حملة كبيرة في قلب آسيا الصغرى عام ١٢٢-١٢٣هـ/ ٧٣٩م - ٧٤٠م، والتقت جيوش الطرفين في واحدة من أشهر المعارك الحربية بينهما والتي عرفت باسم معركة أكروينون؛ استطاع فيها الإمبراطور ليو الثالث وابنه قسطنطين الخامس أن ينزلا بالمسلمين هزيمة شنعاء، أجبرتهم على إخلاء الجزء الغربي من آسيا الصغرى تماما، والتقهقر شرقا. ويجمع المؤرخون المحدثون على أن النصر الذي أحرزه البيزنطيون في هذه المعركة كان بفضل الدعم الذي قدمه الخزر للبيزنطيين؛ وقيامهم بالضغط على المسلمين في



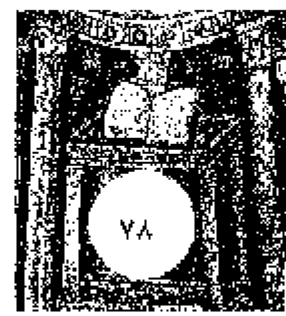
جبهة القوقاز في نفس الوقت الذي يقاتلون فيه الروم. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المعركة استشهد فيها بطل إسلامي سبق ذكره وهو عبد الله البطال. الذي نال شهرة واسعة في قتال الروم، وكان مضربا للشجاعة والإقدام، ونموذجا شعبيا يحتذى به في قتال الروم. وقد زودنا ابن كثير بتفاصيل قيمة عن قتاله للروم واستشهاده حيث يقول:

" . . . وكان سبب شهادته أن ليون ملك الروم خرج من القسطنطينية، فهى مائة ألف فارس، فبعث البطريق، متزوج ابنته، إلى البطال يخبره بذلك، فأخبر البطال أمير عساكر المسلمين بذلك، وكان الأمير مالك بن شبيب، وقال له: المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، فأبى عليه ذلك، ودهمهم الجيش فاقتتلوا قتالا شديدا والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوه باسمه خوفا عليه من الروم، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه دون أن يدري، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوا من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، ورج الناس يقتلون ويأسرون، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب وانكسر المسلمون. ويستكمل ابن كثير روايته قائلا: "وأصبح إليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق، فقال له إليون: ما هذا يا أبا يحيى؟ . . .

فقال: هكذا تقتل الأبطال!! فاستدعى إليون الأطباء ليداووه، فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله، فقال له إليون: هل من حاجة يا أبا يحيى؟ قال: نعم فأمر من معك من المسلمين أن يلوا غسلي والصلاة علي ودفني ففعل الملك ذلك، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى وانطلق إليون إلى جيش المسلمين الذين تحصنوا نحاصرهم فبينما هم في تلك الشدة والحصار، إذ جاءتهم البرد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ففر إليون في جيشه الخبيث هاربا راجعا إلى بلاده قبحه الله، فدخل القسطنطينية وتحصن بها".

كانت هذه هي قصة استشهاد البطال على الرغم مما بها من بعض المبالغة والتشويش التاريخي.

وبعد هذه المعركة المهمة في تاريخ العلاقات بين الدولتين خفت وطأة هجمات المسلمين على آسيا الصغرى، واتخذت الإمبراطورية البيزنطية زمام المبادرة الحربية؛ حيث بدأت بيزنطة في المد العسكري داخل أراضي الدولة الإسلامية على حساب الفتن الداخلية والقلاقل، في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس Constantine V ‏١٢٣-١٥٩هـ/ ٧٤٠-٧٧٥م، الذي وصلت



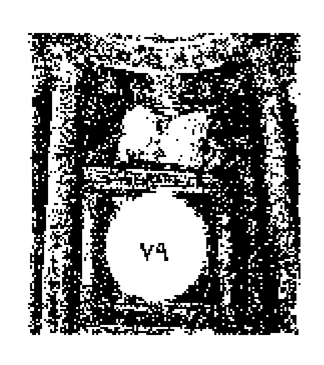
جيوشه إلى أعالي الفرات، بعد أن هاجمت حصونا إسلامية عديدة كملطية ومرعش.

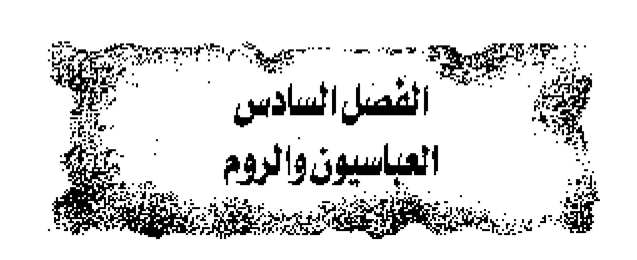
أما في المجال البحري، فقد وقعت معركة بحرية بين المسلمين والروم بالقرب من سواحل قبرص عام ١٣٠هـ/ ٧٤٧م، حيث حاصر الأسطول البيزنطي ما يقرب من ألف سفينة إسلامية، وتمكن الأسطول البيزنطي بفضل استخدام النار الإغريقية أن ينزل الهزيمة بالمسلمين ويقضي على أسطولهم هذا، الذي لم ينج منه سوى ثلاث قطع بحرية فقط. وقد أنهى هذا الانتصار البحري البيزنطي السيادة الإسلامية البحرية على شرقي البحر المتوسط، ولم يستطع المسلمون في مصر والشام أن يعوضوا تلك الخسارة واختفت قوة البحرية الإسلامية لما يقرب من قرن من الزمان.

على أية حال تعرضت الدولة الإسلامية آنذاك إلى مجموعة من القلاقل الداخلية التي أودت بالخلافة الأموية وأدت إلى ظهور الدعوة العباسية، ثم قيام الخلافة العباسية في نهاية المطاف.

أسوار القسطنطينية- بداخلها قصر طوب قابي الذي بناه المسلمون بعد الفتح العثماني







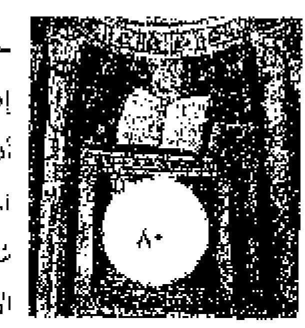
كانت الحدود بين المسلمين والبيزنطيين في عهد العباسيين ميدانا لنشاط حربي محدود يكاد يكون متصلا، ومن الملاحظ أن ذلك النشاط لم يكن على نمط نشاط المسلمين في العهد الأموي، إذ كان هدف الأمويين الزحف والتوسع، واحتلال القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، ليتم بذلك فتح بلاد الروم كما تم من قبل فتح فارس. أما المسلمون العباسيون فقد غيروا هذه السياسة وجعلوا نشاطهم الحربي عبارة عن غارات الغرض منها إظهار القوة، وإرهاب العدو، والرد على ما قد يقوم به من نشاط مماثل، وقبل أن نسير في وصف هذه الإغارات يجدر بنا أن نسأل: لماذا لم يسر العباسيون على سياسة الأمويين في الزحف والتوسع؟ وما الذي أقعدهم دون العمل على إسقاط القسطنطينية؟

من المحتمل أن ذلك يرجع إلى سببين هما:

أولهما: مناوأة أهالي بلاد الشام للعباسيين؛ لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين(مع ملاحظة أن أي تحرك للزحف تجاه القسطنطينية كان لابد أن تتخذ بلاد الشام قاعدة لها، فإذا لم تكن هذه القاعدة مأمونة الجانب مؤيدة للجيوش المعسكرة فيها والمتحركة منها، فإن النصر سيكون صعبا).

ثانيهما: كانت الدولة الإسلامية قد اتسعت اتساعا عظيما يستلزم جهدا كبيرا للسيطرة عليها، وتأمين

بغداد – قصر الأخيضر يعتبر قصر الحكم العباسي زمن الخليفة المنصور

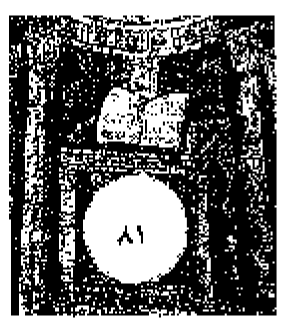


حدودها. ثم إن العباسيين رأوا أنهم فقدوا الأندلس، وأن بلاد شمالي إفريقيا تثير التمرد عليه من حين إلى آخر، فأدركوا أن من الخير لهم أن يتجهوا إلى السيطرة على ما في أيديهم، والمحافظة على دولتهم المترامية الأطراف. بدلا من أن يوجهوا قوتهم إلى التوسع فتضعف شوكتهم في الداخل، ويعرضهم ذلك إلى فقدان أجزاء أخرى من الإمبراطورية. هذا بالإضافة إلى كثرة الحركات الداخلية التي شغلت العباسيين في عصرهم الزاهر الذي كان يمكن أن يكون عصر فتوح.

واكتفى العباسيون بالإغارات ليظهروا قوتهم للأعداء، وأنهم دائما على أهبة الاستعداد للزحف عليهم والإيقاع بهم، وقد اتخذت هذه الإغارات شكلا منتظما، وكانت تسمى الصوائف والشواتي، كما سبق القول.

ويتضح أن جل نشاط العباسيين الحربي كان يتم في الصيف، وأنهم كانوا يتحاشون القيام بالغزوات في الشتاء إذا لم تدع الضرورة لذلك، أما الصوائف فمن الممكن أن نقول إنها كانت منتظمة، وقد بكر العباسيون بالقيام بها منذ نشأة دولتهم، حتى يوقعوا في خلد عدوهم، أن الأحداث الداخلية لم تضعف شوكتهم، ولم تشغلهم عن الهجوم على الأعداء وأول صائفة قام بها العباسيون كانت سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠م وقد قام بها سعيد بن عبد الله. ثم انتظمت بعد ذلك، فنجد الطبري وابن الأثير يقرنان الحج بالناس بالقيام بغزو الصائفة، فيقولان: وحج بالناس فلان وغزا الصائفة فلان، فإذا لم يقم العباسيون بغزو الصائفة فإننا نجد ابن الأثير يذكر ذلك معللا له، فهو يقول في حوادث سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م: "ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ"، ويقول في حوادث سنة ١٣٩هـ/ ٧٥٦م"... ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل إلا سنة ١٤٦هـ/ ٧٦٣م لاشتغال المنصور بابني عبد الله بن الحسن". وهكذا كان شن الصائفة حلقة من برنامج العباسيين لا تتخلف لغير ضرورة قاسية. ومن أهم الصوائف التي حدثت في عهد المنصور تلك الصائفة التي مرت الإشارة إليها والتي ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ١٣٩هـ/ ٧٥٦م، وكانت ردا على غارة شنها إمبراطور الروم على ملطية سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م، فهدم أسوارها ودخلها عنوة، وقد أعد المنصور رده على هذه الغارة في الصائفة التالية، وجعل قيادتها لأخيه العباس بن محمد وعمه صالح بن علي. وقد بدأ صالح بإصلاح ما أفسده الروم في السور، ثم دخل في أرض الروم، وثأر للمسلمين واستنقذ أسراهم.

وطالما كانت الجيوش الزاحفة لغزو الصائفة تسير بقيادة الخليفة نفسه أو ولي عهده، ومما يجب أن يذكر أن الصوائف التي تمت في عهد هارون الرشيد كانت من أقسى الصوائف وطأة على البيزنطيين، وأكثرها إذلالا لهم، وطالما تولاها الرشيد بنفسه.



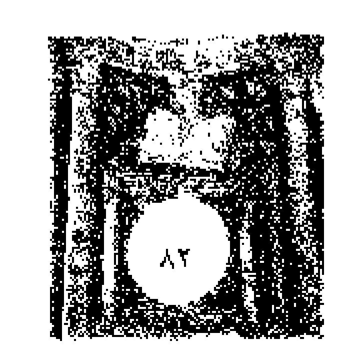
وقد عمد العباسيون إلى إنشاء إقليم العواصم لحماية أطراف الدولة الإسلامية من هجمات الروم. ويقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرفها الحربية؛ لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين؛ ولأن المسلمين كانوا يعتصمون بها من العدو، ثم هي للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية وهي الحصون التي سميت بإقليم الثغور، لمواجهتها للثغرات أو المنافذ التي في أرض العدو، وكان إقليم الثغور ينقسم إلى قسمين: أحدهما في الشمال الشرقي، ويسمى بالثغور الجزرية نسبة إلى أرض الجزيرة شمال العراق) ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث، والقسم الثاني بالثغور الشامية في الجنوب الغربي حيث تقترب من ساحل خليج الاسكندرونة، ومن أهم حصون هذا القسم المصيصة وأذنة وطرسوس.

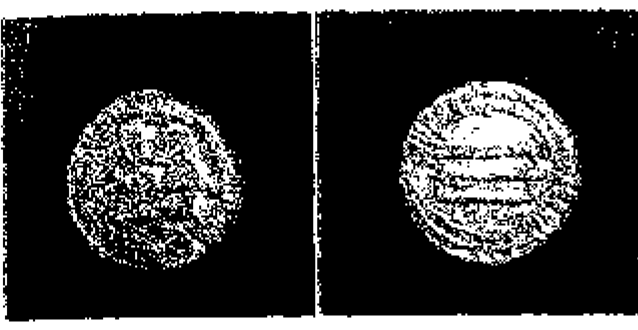
وقصة إنشاء العواصم والثغور هي أن الرشيد لم يكتف بنظام الصوائف لإبراز قوته وحماية بلاده، ولكنه اقتدى بالبيزنطيين الذين أقاموا على أطراف بلادهم المجاورة لبلاد المسلمين خطا دفاعيا وضعوه تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور الطرفية(الكليزورات)، وقد رأى الرشيد أن هذا الخط الدفاعي البيزنطي على حدود البلاد الإسلامية الشمالية؛ وسماه إقليم العواصم والثغور. وكان هذا الإقليم جزءا من أرض قنسرين والجزيرة، ففصله هارون الرشيد عنه، وعين ابنه المعتصم أميرا له، وجعل عاصمته أنطاكية وامتد إلى حلب ومنبج وشمال أنطاكية ومنطقة الساحل.

ومع أن نظام الصوائف والشواتي كان يمثل العلاقات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين في هذه الفترة، فقد كانت ظروف خاصة تجد أحيانا، فتجعل الصائفة أو الشاتية تتوغل في قلب بلاد الروم، أو معركة حربية حامية أوسع مدى، وأشد عنفا من الهجوم الخاطف الذي كان يميز الصوائف والشواتي، وقد لمع اسم هارون الرشيد في هذه المعارك خلال خلافة أبيه وخلال خلافته هو، كما لمع فيها اسم المعتصم ابنه، وقد سجل التاريخ والشعر العربي بعضا من هذه المعارك التي نقدم أمثلة منها:

موقعة خليج القسطنطينية:

كانت الصائفة التي شنها المهدي على البيزنطيين سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م قوية جارفة بسبب النشاط العدائي الذي قام به البيزنطيون على الحدود الإسلامية قبيل هذا الزحف، وقد سير المهدي ابنه الرشيد عام ١٦٥هـ/ ٧٨١م على رأس هذه الصائفة في حوالي مائة ألف مقاتل. وكان مع الرشيد القائد العظيم يزيد بن مزيد الشيباني، وقد كتب لجيش المسلمين النصر في زحفه، واستطاع





دينار ذهبي ضرب في عهد هارون الرشيد (١٨٣ هـ) مكتوب على مركز الظهر (الله ربي)

الرشيد أن يصل بجيشه إلى خليج القسطنطينية. فأوقع الرعب في قلب الإمبراطورة إيرين أرملة الإمبراطور ليو الرابع ١٥٩-١٦٤هـ/ ٧٧٥-٧٨٠م وكانت وصية على ابنها. فطلبت الصلح، وتم الصلح على جزية قدرها سبعون ألف دينار كل عام، وأن تقيم لجيش المسلمين الأدلاء والأسواق في طريق عودتهم، وقتل وجرح من الروم في هذه الوقائع ٥٤,٠٠٠ وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات.

وفي هذه الغزوة يقول مروان بن أبي حفصة مخاطبا الرشيد:

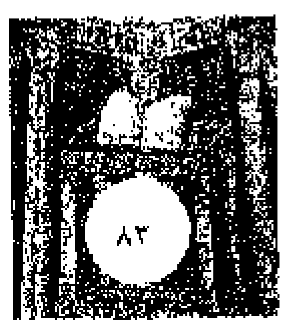
أطفت بقسطنطينية الروم مسندا ... إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها ... بجزيتها، والحرب تغلي قدورها

وتعرضت بعد ذلك الحياة الداخلية في الدولة البيزنطية إلى أحداث جسام وتصارعت فيها قوة ثلاثة: قوة الإمبراطورة إيرين وقوة ابنها قسطنطين السادس ٧٨٠-٧٩٧م/ ١٦٤-١٨١هـ الذي تخطى مرحلة الصبا إلى مرحلة الرشد، وقوة ثالثة يقودها بعض قواد الجيش الساخطين، فانهزمت إيرين أولا، واعتلى الأمير العرش، باسم قسطنطين السادس، ولكن إيرين عادت




كنيسة القديسة إيرين



قبضت على ابنها وسملت عينيه واستولت على الحكم بصورة مطلقة. وفي أثناء حكمها تمت معركة خليج القسطنطينية التي تحدثنا عنها آنفا، والتي قادها هارون الرشيد، وانتهت بهزيمة ساحقة للبيزنطيين وبصلح يدفعون بمقتضاه جزية كبيرة، غير أن قوة الجيش ظلت في طريقها إلى أن تحطمت، وأعلن نقفور الذي كان وزيرا للمالية، نفسه إمبراطورا على الدولة البيزنطية سنة ٨٠٢م/١٨٧هـ.

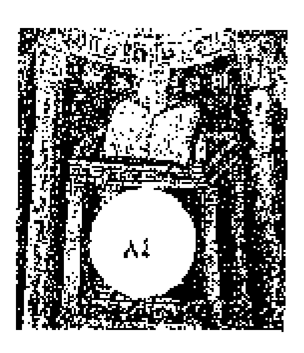
وكان الجيش البيزنطي يعتقد أن الضعف الذي ظهرت به الإمبراطورية البيزنطية أمام جيوش المسلمين، راجع إلى أن الدولة تحكمها امرأة؛ ولذلك بعث نقفور إلى هارون الرشيد الذي كان قد آلت إليه خلافة المسلمين بالرسالة التالية: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب. أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها، ما كنت خليقا بحمل أمثالها إليك، لكن ذاك ضعف النساء؛ فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع له المصادرة لك: وإلا فالسيف بيننا وبينك".

فلما قرأ الخليفة هذه الرسالة استشاط غضبا، حتى لم يستطع أحد من جلسائه أن ينظر إليه: ثم دعا بدواة، وكتب على ظهر الكتاب: "من عبد الله هارون أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم: أما بعد فقد فهمت كتابك يابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام على من اتبع الهدى".

وشخص الرشيد من يومه إلى أعدائه ومعه جيش هائل عام ٨٠٦م/١٩١هـ، وعجزت القوات البيزنطية أن توقف ذلك الجيش الزاحف حتى وصل إلى مدينة هرقلة، وقد غنم في طريقه وأفنى، كما شاءت له رغبته، وعسكر جيش المسلمين حول هرقلة، وبدأ بقذف حصونها بحجارة ملتهبة حتى سقطت، وقد سجل الشاعر العربي هذه الصورة في قوله:

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا	جوائما ترتمي بالنفط والنار
كأن نيراننا في قلب قلعتهم	مصبغات على أرسان قصار

وأدرك نقفور أن الإمبراطورة إيرين لم تكن سبب الهزائم التي حلت ببيزنطة، إنما سببها هو قوة المسلمين الخارقة، وإيمانهم بالهدف الذي يحاربون من أجله؛ فسأل الصلح على مال يؤدى كما كانت إيرين تفعل من قبل. وقبل هارون الرشيد ذلك بعد أن أدبه، ولكن الرجل لم يستطع أن يبر بما وعد؛ فما أن غادر الرشيد أرض الروم حتى نقض نقفور العهد، ظنا أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه؛ وقد كان الشك شديد الوقع على قادة المسلمين، حتى أن أحدا



منهم لم يستطع نقله للرشيد، فاحتيل بشاعر من جدة يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف، ويقال هو الحجاج بن يوسف التيمي ليقول في ذلك شعرا وينشده الرشيد، فقال:

نقض الذي أعطيته نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... غنم أتاك به الإله كبير

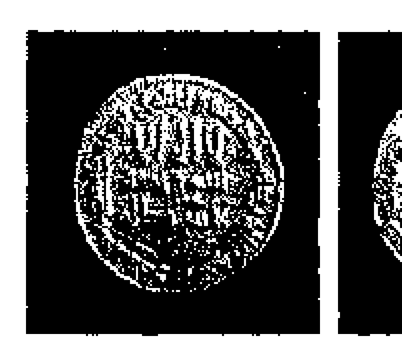
فعرف الرشيد بذلك خبر النكث، وعاد من فوره، وأثخن في بلاد الروم، وفتح هرقلة، ولم يبرحها حتى أخذ الجزية من نقفور عنه وعن آله ورجاله، وكان مقدارها ٧٠,٠٠٠ دينار.

كانت هذه أشهر الاحتكاكات الحربية بين هارون الرشيد، الذي كان مكتوبا على قلنسوته "غاز حاج" وبين أباطرة الروم ولننتقل الآن إلى واحدة من أهم المواقع بين الطرفين والمعروفة باسم "يوم عمورية".

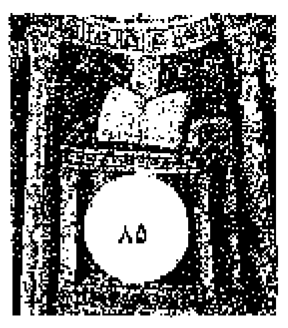
فتح عمورية:

كان الإمبراطور ميخائيل الثاني العموري ٢٠٥-٢١٤هـ/ ٨٢٠-٨٢٩م معاصرا للخليفة العباسي المأمون. وقد مني كل منهما بثائر عنيد أشعل نار الفتنة في الداخل، وأثار القلاقل في وجه سيده، مني المأمون ببابك الخرمي، ومني ميخائيل بتوماس Thomas Sclavinian الصقلبي، وبابك هو زعيم الخرمية ورئيسها الأكبر، وكانت هذه الطائفة إحدى طوائف الفرس التي تعيث في الأرض فسادا، وتخيف السبيل، وتبيح المحرمات.

أما توماس الصقلبي فهو رجل سلافي الأصل، قاد الثائرين على الإمبراطور لعدد من الأسباب الخاصة به والعامة، وقويت هاتان الثورتان واستفحل شأنهما، إذ أيد المأمون ثورة توماس وأمده بالعون، وفعل ميخائيل وخلفه تيوفيل ٢١٤-٢٢٨هـ/ ٨٢٩-٨٤٢م مثل ذلك بالنسبة إلى بابك الخرمي، ولكن ميخائيل العموري استطاع بعد كثير



دينار صك في عهد المأمون ٢١٦هـ/ ٨١١م - مركز الظهر للخليفة المأمون



من الجهد ان يقضي على المتمرد عليه قبل أن يتمكن المأمون من الانتصار على الثائر في بلاده، ومات المأمون بعد أن أضعف شوكة بابك، وأوصى ولي عهده المعتصم أن يجد ليقلم أظفاره ويقضي عليه.

وأعد المعتصم حملة كبيرة بقيادة قائده التركي الأفشين، وبعث بها لمحاربة هذا الثائر، ولما ضيق عليه الخناق، وحس بابك أن الدنيا ضاقت به، أرسل إلى الإمبراطور ثيوفيل بن ميخائيل، يخبره أن جيوش المسلمين اجتمعت عليه، ويغريه بالخروج لغزو بلاد المسلمين ويمنيه بأن الغزو سيكون سهلا ما دامت جيوش المسلمين مشغولة في حربها معه، واستجاب ثيوفيل لنداء بابك، وكان بذلك يخدم غرضين، فهو يخفف الضغط عن حليفه، ثم هو يثأر لأمته من المسلمين الذين طالما نكلوا به وبقومه، ولكن المعتصم كان فطنا، فاحتمل طغيان البيزنطيين على أرضه دون أن يخفف ضغطه على بابك، وظل كذلك إلى أن انتصر عليه، وشتت شمل جيشه، ومثل به.

أما ثيوفيل فكان قد اتخذ زبطرة، مسقط رأس المعتصم، هدفا لهجومه. ويحدثنا ابن الأثير أنه قتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار كذلك على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين، ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل عيونهم، وقطع أنوفهم وآذانهم، وكان من بين من أسر من النساء امرأة هاشمية كبر عليها الضيم والقسوة، فصاحت: وامعتصماه، ونقل بعض الحاضرين خبر هذه الصيحة إلى المعتصم وقد انتهى من بابك فأجاب: لبيك يا أماه.

على أن ما أصاب زبطرة الإمبراطورية التخريب والحريق بلغت أنباؤه المعتصم في عاصمته سامرا، فعزم على أن يثأر لها، وما كاد ينتهي من فتنة بابك التي انتهت بمصرعه سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، حتى أعد عدته بأن يصوب ضربة قاصمة لذلك الإمبراطور وتقضي على هيبته، فالمعروف أن عمورية هي مسقط رأس الإمبراطور ثيوفيل Theophilus ٢١٤-٢٢٨هـ/ ٨٢٩-٨٤٢م، فعزم المعتصم على إزالتها من الوجود. على أن لعمورية أهمية أخرى، إذ إن الاستيلاء عليها، يعتبر خطوة في سبيل الوصول إلى القسطنطينية؛ فهي من أهم وأحصن مدن آسيا الصغرى الواقعة على الطريق إلى القسطنطينية. فلم تكن حملة المعتصم كالحملات السابقة موجهة إلى الحصون الواقعة على الأطراف، بل موجهة إلى أهم موقع في جوف اسيا الصغرى، إذ اعتبرها الطبري "عين النصرانية".

غادر المعتصم سامرا في أبريل سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م، وقد كتب على ألوية الجيش وتروسه "عمورية"، لقد اشتهر المعتصم بالفروسية والبسالة، وقد جعل على مقدمة الجيش أشناس التركي، وشارك في هذه الحملة الأفشين، الذي اشتهر بأنه قضى على الفتنة التي حدثت بمصر، واشترك في قتال بابك.



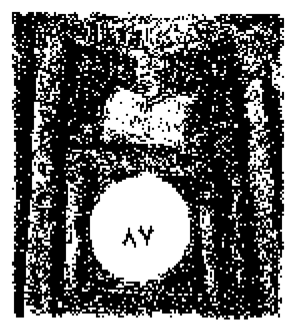
وجعل المعتصم أنقرة أول هدف للحملة، فزحف جيش الشرق، بقيادة الافشين وقد سلك طريق مرعش؛ فعبر الحدود عن طريق درب الحدث، في وقت جرى الاتفاق عليه، حتى يتهيأ له الالتقاء بالجيش القادم من الغرب؛ في سهل أنقرة وانضم إلى هذا الجيش، فيما يبدو، جند من الأرمن وأمير ملطية. أما الخليفة (المعتصم)؛ فتهيأ في نفس الوقت إلى المسير إلى أنقرة وليس إلى عمورية فقط.

المئذنة الملوية أشهر معالم سامراء
في العصر العباسي الذهبي

لم يخف على الإمبراطور البيزنطي ما وضعه الخليفة من خطط عن أنقرة وعمورية، فخرج ثيوفيل من القسطنطينية في مايو سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م، وفي دوروليوم على مسيرة ثلاثة أيام من عمورية، وتقع على الطريق المؤدي إلى الحدود الإسلامية، أخذ يجمع من

مدخل مدينة سامراء



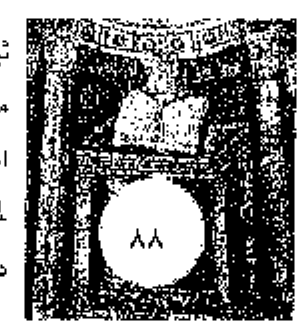


المؤن والعتاد ما يقوى به أسوار عمورية وحاميتها. ومن الطبيعي أن يقوم الثيموس قائد ثيم الأناضول بالدفاع عن عمورية، عاصمة ذلك الثيم.

وأعد الإمبراطور خطته، على أن يقوم بمهاجمة قوات نسلمين، أثناء سيرها صوب الشمال إلى أنقرة. ولما لم يكن يعلم شيئا عن الجيش الشرقي الذي يقوده الأفشين، عبر نهر الهاليس Halys، وعسكر بجيشه بموضع يقع في أقصى خرشنة. ولا يبعد كثيرا عن النهر؛ وذلك لأنه ظن أن الجيش الإسلامي، سوف يجتاز درب قيليقية، في طريقه إلى آنقرة، فيستطيع بذلك أن يهاجم جناحه.

على أن جيش الخليفة القادم من جهة الغرب، إنما زحف من طوانة صوب الشمال؛ غير أن الخليفة أصدر أوامره بالتوقف، ريثما يقف على مواقع العدو. وحدث في الوقت ذاته أن علم

لوحة فنية حديثة تمثل المعركة

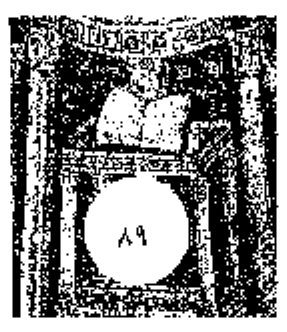


ثيوفيل بزحف الجيش القادم من الشرق، فاضطرب بذلك ما وضعه من الخطط، إذ تحتم عليه أن يقسم قواته، فجعل الجانب الأكبر من الجيش تحت قيادته، وتوجه لمواجهة الأفشين، بينما ترك بقية الجيش لمنع تقدم الخليفة. وما كاد الأفشين يجتاز سواس، وأضحى في إقليم دازيمون حتى تحتم أن تنشب معركة بينه وبين الإمبراطور.

وابتدأت المعركة في أول ساعات الصباح من يوم الخميس ٢٥ شعبان / ٢٢ يوليه، وعلى الرغم من أن البيزنطيين أحرزوا النصر أول الأمر، فإن المسلمين سيطروا على الموقف، ووقع الاضطراب في صفوف البيزنطيين، حين شاع الخبر بأن الإمبراطور لقى مصرعه، غير أن الإمبراطور عاد إلى معسكره، وأنزل العقاب بمن هرب من الجنود. وأرسل من قبله طواشيا إلى أنقرة للدفاع عنها، غير أن الأمر جاء متأخرا، إذ احتل المدينة الجيش الإسلامي القادم من الغرب دون أن يجد مقاومة؛ ذلك أن أهل المدينة أفزعهم ما بلغهم من نبأ انتصار الأفشين، فغادروا المدينة، واعتصموا بالجبال، ولم يلبث أشناس أن اكتشف مواضعهم فأنزل بهم هزيمة ساحقة. ولم يلبث أن انضم الأفشين بقواته إلى المعتصم وأشناس وقواتهما بأنقرة، فأنزلوا بها الخراب والدمار. ولم يسع الإمبراطور إلا أن يلتمس من الخليفة الصفح عنه وإجراء الصلح فأرسل إليه مبعوثين يطلبون عقد هدنة. ويعرضون تعهد الإمبراطور بإعادة بناء زبطرة، وإعادة السكان إليها، وأن يطلق سراح من عنده من أسرى المسلمين وأن يسلم إلى الخليفة كل من ارتكب في زبطرة شيئا من أعمال العنف والقوة. غير أن الخليفة لم يستجب لتوسلات الإمبراطور، وشيع رسله بالاحتقار والسخرية.

أما الإمبراطور ثيوفيل فإنه توجه إلى دوريليوم، منتظرا ما سوف يحل بمدينة عمورية من المصير المحتوم بعد تدمير أنقرة. فجعل جيشه ثلاثة أقسام، على أن يفصل بين كل قسم وقسم فرسخان، فكان أشناس على المقدمة، واتخذ الخليفة موضعه في القلب، بينما كان الأفشين في المؤخرة، وأنزلوا أثناء سيرهم الخراب والدمار بكل ما يجتازونه من الجهات، حتى وصلوا إلى عمورية بعد سبعة أيام من سيرهم. وشرع المعتصم في حصار عمورية في أول أغسطس. واشتهرت المدينة بشدة مناعتها وحصانتها، حيث كان يحيط بها سور مرتفع يزيد من مناعته ما يقع عليه من أبراج بلغ عددها أربعا وأربعين برجا، وأحاط بها خندق واسع، وتولى الدفاع عنها آيتيوس قائد ثيم الأناضول وساعده قادة آخرون.

وبعد حصار استمر أسبوعين، أعلنت المدينة التسليم في ١٣ أغسطس ٨٣٨ م/ ٢٢٤هـ، فوقع في أيدي الخليفة عدد وفير من الأسرى من النساء والأطفال، فضلا عن الغنائم الوفيرة، ونقل المعتصم معه إلى سامرا اثنين وأربعين أسيرا من ذوي المكانة، حيث ظلوا في الحبس سبع سنوات.



وأرسل ثيوفيل إلى المعتصم باسيل قائد ثيم خرشنة بالهدايا، وبرسالة تتضمن أسفه لما حل بزبطرة من الدمار، ويطلب إلى الخليفة أن يطلق سراح أتيتوس، مقابل أن يطلق سراح من عنده من الأسرى المسلمين، غير أن الخليفة رفض أيضا ذلك الطلب.

ومما ترتب على غزو المعتصم من كوارث بآسيا الصغرى، وما جرى من توغل مسلمي إفريقيا في جزيرة صقلية، وما أنزله العرب في جزيرة كريت بالإمبراطورية البيزنطية من هزائم. كل ذلك جعل الإمبراطور يعتقد أنه لا قبل له بقوة المسلمين المتزايدة في البحر المتوسط. فعزم على أن يلتمس المساعدة من الدول الأخرى. فأرسل إلى لويس التقي Loius the Pious، الإمبراطور الفرنجي سفارة، تضم أسقفا وبطريقا. فطلبت إلى الإمبراطور أن يبعث بجيش قوي لمهاجمة مصر أو الشام، حتى يضعف من قوة الخليفة وتشتيتها. ولقيت السفارة ترحيبا في إنجلهيم (في ١٧ يونيه سنة ٨٣٩م)، غير أنه لم يترتب عليها نتيجة من النتائج.

وما سعى إليه من حث أمير الأندلس، عبد الرحمن الثاني، على التعاون معه ضد الخليفة العباسي، لم يلق إلا الفشل الذريع. إذ إن أحوال الأندلس وقتذاك بلغت من السوء ما جعل من المستحيل أن توجه حملة لمساندة الإمبراطور. غير أنه (عبد الرحمن الثاني) أظهر من النية الحسنة ما جعله يرسل مع السفارة صديقه الشاعر يحيى الغزال، وطلب إليه أن يذكر للإمبراطور بأنه سوف يرسل إليه أسطولا إذا هدأت الأمور في بلاده، غير أنه لم يتم شيء من هذا القبيل.

ثم حدث أن عرض ثيوفيل من جديد على الخليفة المعتصم تبادل الأسرى، فرد عليه المعتصم، أنه إذا أردت أن ترد علينا من كان لديك من المسلمين، دون أن تطلب مقابلا لذلك، فإننا نرد عليك أضعاف من تطلق سراحه، وبذلك فإنه لم يطلق سراح أتيتوس، وتقرر عقد الهدنة عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م. وقد خلد الشاعر العباسي أبو تمام قصة هذه الوقعة في قصيدته التي يقول فيها:

السيف أصدق أنباء من الكتب … في حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت … عنك أني حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعد … والمشركين ودار الشرك في وصب
أم لهم، لو رجوا أن تفتدى جعلوا … فداءها كل أم برة وأب
من عهد إسكندري أو قبل ذلك قد … شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
لقد تركت أمير المؤمنين بها … للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى … يغله وسطها صبح من اللهب
إن كان بين ليالي الدهر من رحم … موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها … وبين أيام بدر أقرب النسب

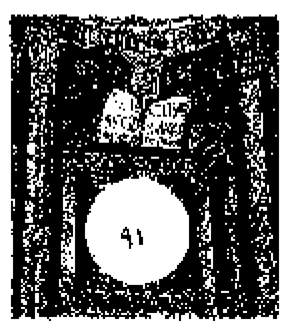

سكة باسم «الواثق بالله» (٢٢٧ / ٢٣٢هـ)

عشى أن المعتصم تجهز لمهاجمة القسطنطينية، وأعد لذلك أسطولا مؤلفا من ٤٠٠ سفينة، أبحرت من موانئ الشام سنة ٢٢٨هـ/ ٨٤٢م، غير أن المعتصم مات في نفس الشهر الذي مات فيه ثيوفيل، وتحطمت السفن على صخور جزائر خيلدونيا فلم ينج منها إلا سبع سفن فقط.

وتولى الخلافة من بعد المعتصم، الخليفة الواثق ٢٢٨-٢٣٣هـ/ ٨٤٢ - ٨٤٧م الذي جرى في زمنه من الفتن الدينية والثورات في بلاد العرب ودمشق، والسخط والكراهية في بغداد، ما جعله عاجزا عن مواصلة الجهاد الديني؛ وعلى الرغم من أنه لم تعقد بين البيزنطيين والمسلمين هدنة، فإنه تم تبادل الأسرى، وتوقفت الأعمال الحربية عدة سنوات.

وما كادت تعود عبادة الصور إلى سابق عهدها قبل عهد ليو الايسوري، حتى جرى استئناف الحرب ضد المسلمين. إذ إن الوزير ثيوكتستوس قادة حملة بحرية ضخمة لمهاجمة جزيرة كريت في مارس سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م؛ وبلغت هذه الحملة من القوة والاستعداد ما لم تبلغه سائر الحملات التي وجهها من قبل ميخائيل الثاني. ولم يلق ثيوكتستوس صعوبة في الوصول إلى كريت، والنزول بعساكره بها، غير أن المسلمين بكريت استطاعوا أن يثيروا مخاوف القائد على مركزه ومكانته عند ثيودورا Theodora؛ فشاع الخبر بأن الإمبراطورة جعلت أحد منافسيه قيما في الحكم. فلم يسع القائد إلا أن يعجل بالعودة إلى القسطنطينية، وأن يترك جانبا كبيرا من جيشه بكريت؛ فتعرض للهزيمة الساحقة التي أنزلها به المسلمون.

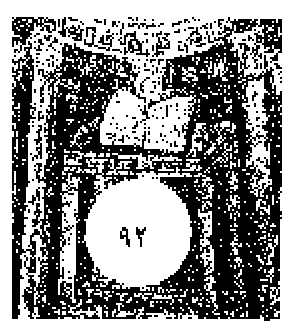
وعلى الرغم من أن أمراء كريت كانوا مستقلين فعلا، فإنهم اعترفوا بسيادة الخليفة في مؤونتها على ما تمدها به الإسكندرية، وأنها أصبحت كأنها تابعة لولاية مصر. والراجح أن ثيودورا، حينما أدركت هذه الصلة، أرسلت إلى مصر سنة ٢٣٨هـ/ ٨٥٣م حملة بحرية فاقت في الضخامة كل ما كان معروفا وقتذاك من القوى الحربية. وتألفت هذه الحملة البحرية من ثلاثة أساطيل؛ تشتمل على ثلثمائة سفينة، منها أسطولان لم تعرف الجهة التي يقصدانها، والراجح أنه جرى تكليفهما بأعمال حربية في بحر الأرخبيل، أوعلى ساحل الشام، أما الأسطول الثالث الذي



تألف من ٨٥ سفينة، وخمسة آلاف رجل وتولى قيادته، على حد ما ورد فى المصادر العربية، ابن قطونا، الذى يسميه فازيليف تكتيانس، فتقدم إلى دمياط فى ٢٢ مايو سنة ٨٥٣م/ ٢٣٩هـ. ولما وصل الأسطول البيزنطى، ولم يكن بالمدينة حامية عسكرية، إذ إن عنبسة بن إسحاق آخر الولاة من العرب على مصر، استدعى الجند للاشتراك فى الاحتفال بعيد الأضحى بالفسطاط وبادر أهل المدينة بمغادرتها، بينما أنزل البيزنطيون بها النهب والحريق، وأسروا من سكانها نحو ٦٠٠ من المسلمين والقبط، وعثروا على مقادير كبيرة من الذخائر، جرى إعدادها لإرسالها إلى والى كريت. وبعد أن استمر البيزنطيون فى مهاجمة دمياط، أقلعوا بسفنهم إلى جزيرة تنيس، غير أنهم لم يلبثوا أن تحولوا بعد أن أدركوا ما تتعرض له سفنهم من الخطر بسبب ما يكتنف الجزيرة من كثبان رملية، إلى حصن أشتوم، المشهور بمناعة أسواره وأبوابه المصنوعة من الحديد. وبعد أن دمر البيزنطيون ما عثروا عليه من أدوات الحرب، عدوا إلى مواطنهم.

وفى السنوات الأخيرة من حكم ميخائيل الثالث Michael III ٢٢٨-٢٥٣هـ/ ٨٤٢-٨٦٧م، واصل المسلمون بكريت، غاراتهم على جزر بحر الأرخبيل، فتعرضت جزيرة لسبوس Lesbos للنهب والتخريب، وجرى نقل رهبان دير اتوس Athos من مواضعهم. وقام الإمبراطور ميخائيل الثالث وبارداس Bardas بمحاولة أخيرة لاسترداد جزيرة كريت، بأن أعدا حملة بحرية كبيرة، أقلعت من شواطئ ثيم تراقسيان، حيث اجتمعت سائر الأساطيل والعساكر القادمة من ثيمات آسيا الصغرى للاشتراك فى الحملة ضد كريت، على أن هذه الحملة قضى عليها أعداء الإمبراطور، وظلت كريت فى أيدى العرب نحو ثلاثين سنة أخرى.

أيقونات من إحدى كنائس رافنا

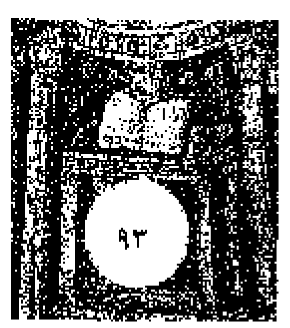


وعهدت ثيودورا إلى ثيوكتستوس بقتال المسلمين في الشرق، غير أنه حدث به الهزيمة أيضا بر عند ماوروبوتامون Mauropotamon، عند مدخل البوسفور ولما عاد ثيوكتستوس إلى العاصمة، أذاع بأن برداس هو المسئول عما حل بالجيش البيزنطي من الهزائم. وأن ما ارتكبه من الأخطاء أدت إلى هروب البيزنطيين من القتال، وقد لقى التأييد من ثيودورا واضطر برداس على أثر ذلك إلى أن يغادر العاصمة.

على أن ما حدث زمن الواثق ٢٢٨-٢٣٣هـ/ ٨٤٢ - ٨٤٧م، الذي تولى الخلافة بعد المعتصم من الفتن الداخلية في أنحاء الخلافة العباسية، كالثورة التي شبت في دمشق بتأييد الأمويين، وما وقع في بلاد العرب من تمرد القبائل، وثورة الأكراد في أعالي العراق، وفتن الخوارج، وما حدث من ازدياد السخط والكراهية للخليفة في بغداد بسبب سوء الإدارة وفسادها، وبسبب الفتنة الدينية حول القول بخلق القرآن وقدمه، و حول رؤية الله في الحياة الآخرة، كل ذلك جعل الخليفة يجنح إلى عقد هدنة مع البيزنطيين، ولم تكن أحوال بيزنطة وقتذاك تدعو إلى المضى في قتال المسلمين بعد أن أصابتها الكوارث والهزائم الخطيرة في صقلية سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م.

ولذا قرر إجراء تبادل الأسرى بين الدولتين ٢٣١-٢٣٢هـ/ ٨٤٥ - ٨٤٦م، على نهر اللامس بآسيا الصغرى الذي يعتبر حدا فاصلا بين الممتلكات الإسلامية والبيزنطية، واستمر الفداء أربعة أيام، جرى في أثنائها افتداء نحو ٤ آلاف من الأسرى المسلمين، منهم نساء وأطفال وذميون من رعايا الخليفة.

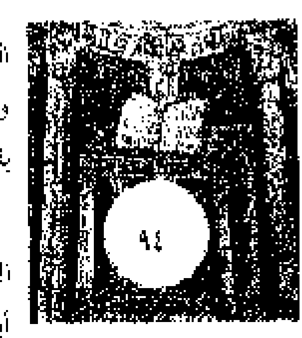
ويرتبط بالقتال بين المسلمين والبيزنطيين في الشرق، ما جرى من اضطهاد البيالصة Paulicians. فالمعروف أن مذهب البيالصة ذاع وانتشر في سائر آسيا الصغرى من فريجياPhyrcgia وليكاونيا Lycaonia إلى أرمينية، وأن أتباع هذا المذهب عاشوا في هدوء وسلام زمن الأباطرة الأيقونيين في القرن الثامن الميلادي ولما اشتهروا به من تحريم عبادة الصور والرسوم والصلبان، واعتبار الذين يقومون بذلك عبدة أصنام، صار لهم سلطان كبيرا على الحركة اللايقونية، غير أنه أصابهم ما أصاب اللايقونيين من الاضطهاد زمن ثيوفيل وابنه ميخائيل الثالث، وترتب على هذا الاضطهاد أن لجأ إلى حماية أمير ملطية الأمير عمر بن عبيد الله الأقطع، أحد القادة البيزنطيين ويدع قرياص، بشيم الأناضول بمن معه من الجند الذين يبلغون نحو ٥ آلاف رجل. والراجح أنه كان للبيالصة مناطق في شمال ملطية وغربها، وأشهر مدنهم تفريك التي اتخذها البيالصة حاضرة لهم، وأقام بها زعيمهم.



وإذا أدرك البيالصة أن تيودورا سوف تمضي في سياسة زوجها، التي تمضي باضطهاد المذاهب المخالفة للأرثوذكسية، وأنها هددت البيالصة بالإبادة إذا لم يرجعوا إلى الدين القويم. وأعقبت ذلك بإرسال حملة ضخمة لتنفيذ رغبتها، فجرت المذابح وهلك عدد كبير من البيالصة قتلا أو حرقا؛ ومن نجا منهم هرب إلى الحدود، واستولت الدولة على ممتلكاتهم.

وما كادت تيودورا تعزل من الحكم سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م حتى نشط البيالصة في التعاون مع المسلمين في قتال البيزنطيين؛ إذ إن أخاها بتروناس Petronas، الذي شغل وقتذاك وظيفة قائد ثيم الثراقسيان تولى قيادة الجيش، وفي صيف سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م؛ قام بغارات على سميساط وآمد؛ ثم تقدم لمهاجمة تفريك، الذي انحاز إلى أمير ملطية ووالي طرسوس في الإغارة على أملاك البيزنطيين. ومما حدث في هذه السنة ٨٥٦م/ ٢٤٢هـ من غارات أمير ملطية وأمير طرسوس والحجاز زعيم البيالصة لهما، إنما يقابله ما قام به الإمبراطور ميخائيل الثالث، الذي بلغ وقتذاك سن الرشد، وبصحبته خاله بارداس وبتروناس، من الاستعداد لقتال المسلمين. فتوجهت الحملة الأولى لمهاجمة سميساط، وتولى قيادتها بارداس، غير أن المسلمين داهموا البيزنطيين ولم ينجح الإمبراطور ميخائيل إلا بصعوبة بالغة. ثم جرى تبادل الأسرى في شتاء هذا العام ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، والراجح أن الإمبراطور البيزنطي، هو الذي اقترح ذلك، بعد أن حاقت به الكوارث في الشرق، وفي صقلية؛ على أنه ما كادت أسابيع قليلة تمضي على هذا الفداء، حتى خروج الإمبراطور ميخائيل لمهاجمة أملاك المسلمين، غير أن ما ورد من أخبار مهاجمة الروس للقسطنطينية في يونيه عام ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م جعله يعود لمعالجة الموقف؛ فلما زال الخطر، ارتحل الإمبراطور من جديد إلى الشرق، لقتال عمر أمير ملطية، الذي استعد للأمر وخرج للحرب. اتخذ الإمبراطور الطريق الإمبراطوري المعهود الذي يؤدي إلى أعالي الفرات عن طريق أنقرة وسيواس، وأقام معسكره في سهل دزيمون، حيث أنزل الأفشين بأبيه من قبل هزيمة ساحقة؛ وصار يرقب قدوم الأمير من سواس، من الطريق المعهود، غير أن عمر اتخذ طريقا مختلفا، وأخذ البيزنطيين على غرة، وذلك بأن قاد جيوشه صوب الشمال عبر التلال، ولما هبط إلى سهل داريمون، اتخذ له ولجيوشه موضعا ملائما في خوناريون Chonarion، قرب المعسكر البيزنطي، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، انتهت بالهزيمة الساحقة التي حلت بالبيزنطيين، وفر الإمبراطور ميخائيل إلى قمة التلال، فحصره الجيش الإسلامي فترة من الزمن، غير أن المسلمين لم يلبثوا أن انسحبوا بسبب قلة المؤونة ونفاد الماء.

والراجح أن عمر أمير ملطية تقدم، بعد الانتصارات التي أحرزها، حتى بلغ سينوب ثم عاد بعد ثلاث سنوات عام ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م، فخرب ثيم الأرمنياق، واستمر في سيره حتى ساحل



البحر الأسود، فاستولى على أميسوس Amisus، التي كانت تعتبر وقتذاك من أكبر موانئ قبادوقيا، على ساحل البحر الأسود، وترتبط بقبادوقيا بطريق عهد سهل.

ولما علم الإمبراطور ميخائيل بما أحرزه عمر أمير ملطية من الانتصارات، أعد جيشا كبيرا، جعل على رأسه بتروناس، وجعل أيضا تحت تصرفه الجيوش البيزنطية المرابطة في تراقيا ومقدونيا. اتخذ عمر طريقه الممتد على شاطئ نهر هاليس إلى عوانة والبدندون. وجعل بتروناس خطته على أساس أن يعترض طريقه، ويوقف تقدمه، وأن يطوق عدوه في الموضع بين بحيرة تطا Tatta ونهر الهاليس. فاجتمع إلى الشمال منه جيوش ثيمات الأرمنياق، والبقلار وبافلاجونيا، وكولونيا، بينما احتشد في الجنوب والجنوب الشرقي جيوش ثيمات الأناضول، والابسيق وقبادوقيا، يعززها عساكر سلوقية وخرشنة، بينما اتخذ بتروناس ومن معه من عساكر ثيمات التراقسيان وتراقيا ومقدونيا مكانه إلى الغرب من طريق الجيش الإسلامي، ولم يكن يفصل بينه وبين معسكر المسلمين إلا تل، استطاع بتروناس أن يحتل قمته، وعلى الرغم من أنه جرى تطويق قوات عمر في هذا الموضع، غير أنه شن هجوما خاطفا، كان يرمي من ورائه إلى أن يشق له طريقا، وسط الجيوش البيزنطية، التي قدرها المؤرخون المسلمون بنحو ٥٠ ألفا، ليسير نحو الشمال أو الجنوب، غير أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا، فلقي مصرعه وهو يقاتل عدوه الذي يفوقه في العدد وأرسلت رأسه ليطاف بها في شوارع القسطنطينية. وآخر ما حدث من الحروب في الشرق زمن ميخائيل الثالث Michael III، كان في سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، حيث لقي علي بن يحيى مصرعه في موقعة مارتيروبوليس Martyropolis (ميافارقين) في أعلى الفرات.

ولم تتعرض الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية في آسيا الصغرى لتغيير كبير، غير أن المسلمين أضافوا إلى أملاكهم حصونا عديدة، وما هو أهم من ذلك أن رسخت أقدامهم في قبادوقيا شرق نهر الهاليس.

أما سياسة ميخائيل الثالث في البحر المتوسط، فالمعروف أن المسلمين بجزيرة كريت، أخذوا يذرعون بحر الأرخبيل كيفما شاءوا، وحصلوا على ما كانوا يبتغون من الغنائم. وتعرضت جزيرة لسبوس للتخريب والنهب. وقد قرر ميخائيل الثالث وبارداس أن يعدا حملة ضخمة لمهاجمة كريت الإسلامية، وأن تقلع هذه الحملة من شواطئ ثيم تراقسيان التي تجتمع بها سائر أساطيل الأقاليم والقوات العسكرية القادمة من الثيمات الأسيوية، وذلك سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م، غير أن ما حدث من نجاح المؤامرة التي دبرها باسيل Basil I (الذي صار فيما بعد الإمبراطور باسيل المقدوني)؛ لاغتيال القيصر بارداس، أوقف سير الحملة إلى كريت. أما في صقلية، فإن محاولة

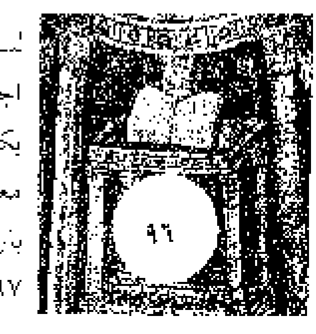
الأسرة العمورية لاسترداد ما استولى عليه المسلمون من المواقع باءت بالفشل، بل إن أقدام المسلمين رسخت في الجنوب الشرقي للجزيرة باستيلائهم على نوتو Noto و Sceicli، وكذا في الشمال الشرقي، باستيلائهم على مرتفعات تاورمينا Tauromenium؛ غير أن سيراكوزا عاصمة الجزيرة لم تسقط في أيدي المسلمين إلا زمن المقدونيين.

وتجدر الإشارة إلى أنه في أواخر عهد ميخائيل الثالث وقعت فتنا داخلية في بغداد وبلاد الخلافة العباسية بسبب تسلط الترك وإرغامهم الخليفة المستعين على التخلي عن الخلافة سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦ م. فولي الخلافة من بعده المعتز، ومنذئذ دخلت الدولة العباسية في دور التداعي والتفكك، على حين أن الدولة البيزنطية استهلت عصرا جديدا من القوة والتوسع، على أيدي أباطرة الأسرة المقدونية ٢٥٣-٤٤٨هـ/ ٨٦٧-١٠٥٦م، وذلك بعد أن اغتال باسيل الأول سيده ميخائيل الثالث وصار إمبراطور على الإمبراطورية البيزنطية عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م.

جدير بالذكر أن ما وقع من النزاع بين الأمراء اللومبارديين في جنوب إيطاليا، وما تعرضت له روما من غارات المسلمين، وما حدث من المصادمات بين نابولي والأمراء اللومبارديين، كل ذلك دعا أباطرة الفرنجة أمثال لويس التقي Louis the Pious، ولوثير Lothair إلى التدخل في شئون إيطاليا، وحرص لويس الثاني على أن يوطد سلطانه في إيطاليا، ويعمل على استرداد ما استولى عليه المسلمون من البلاد. والمعروف أن المسلمين استولوا على باري Bari وأقاموا لهم بها إمارة، وصاروا يسيطرون على أبوليا Apulia، حيث خضع

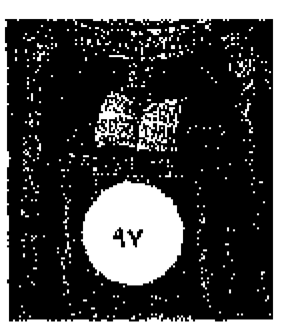
الكنيسة الكارولنجية التي بناها

شارلمان بجوار قصره



لسلطانهم ٢٤ حصنا، ومن هذه الحصون صاروا يشنون الغارات على الجهات المجاورة؛ وقد شتهرت باري باستحكاماتها المنيعة، ولما لم يكن لديه أسطول قوي، لم يستطع لويس أن ينتزع من المسلمين معاقلهم الساحلية، فتعرض لهزيمة ساحقة حينما حاول الاستيلاء على باري، على الرغم من طول مدة حصره لها، وذلك سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧ م. وترتب على ذلك أن استعان لويس الثاني بكل من البندقية والدولة البيزنطية سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م. فأحرزت القوات المتحالفة نصرا بحريا في تارنت Tarentum التي أفلح منها أو من كريت أسطول إسلامي ليغير في عام ٨٧٥م/ ٢٦٢هـ على البندقية، فأحرق مدينة كوماشيو Comacchio الواقع على مصب نهر البو. وتعتبر هذه هي آخر إغارات المسلمين على أعالي البحر الأدرياتي.

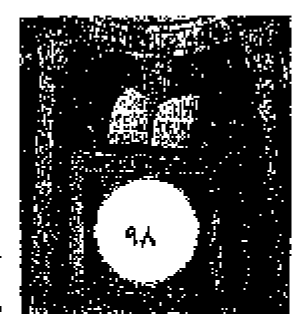
وعلى الرغم من أن الدولة البيزنطية بمساعدة البندقية، استطاعت أن تصد الضربات التي وجهها المسلمون إلى سواحل دلماشيا واليونان والبلوبونيز؛ وأن تستولي على جزيرة قبرص وتحتلها لمدة سبع سنوات، فإنها لم تستطع أن تبسط سلطانها على الساحل الغربي لإيطاليا. إذ ازداد ضغط المسلمين على امتداد هذا الساحل الإيطالي، فأغاروا على جايتا Gaeta وسالرنو Salerno، وتعرضت إمارة البابا أيضا الغارات التخريبية؛ واستنجد البابا حنا الثامن بالإمبراطور شارل الأصلع، وبالدولة البيزنطية، وبمدن أمالفي Amalfi وجايتا ونابولي؛ غير أن دعوته لم تلق اهتماما محسوسا. فلم تحفل الدولة البيزنطية بمساعدته لما تبين لها من ممالأته للكارولنجيين ومناوءته لمصالحها، فضلا عن تحسن مركزها في صقلية والشرق. ولم يكن لدى شارل الأصلع قوة بحرية يستطيع أن يبعث بها لرد المسلمين. يضاف إلى ذلك أن مدن كامبانيا حرصت على الإبقاء على صداقة المسلمين فلم يسع البابا، إزاء كل ذلك، إلا أن يدفع للمسلمين جزية قدرها ٢٥ ألف دينار حتى يستتب الأمن والسلام في أملاك الكنيسة بوسط إيطاليا. ثم استولى المسلمون على جزيرة مالطة، التي اشتهرت بموقعها الحربي بجنوب صقلية وفي سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨ م سقطت سيراكوزا، بعد حصار استمر تسعة أشهر، تعرضت أثناءه المدينة لمجاعة شديدة ترتب عليها وباء هلك فيه عدد كبير من السكان؛ فلم يبق في يد البيزنطيين إلا تاورمينا Taormina في شرق الجزيرة؛ على أن ضغط المسلمين لم تتوقف حدته إلا سنة ٢٦٧هـ/ ٨٨٠م حين ظهر أسطول بيزنطي قبالة صقلية، واعترض طريق التجارة بين المسلمين ومدن جنوب إيطاليا، واستولى على مقادير من الزيت بلغت من الوفرة أن انخفضت أسعار الزيت في أسواق القسطنطينية. ومن الواضح أن هذا الأسطول اتخذ قاعدته في ترميني Termini. وعلى الرغم من أن نابولي عادت إلى سابق تبعيتها لبيزنطة بسبب قوة هذا الأسطول، فإن نشاط المسلمين البحري لم يتوقف في المياه الغربية، بل إنهم اتخذوا لهم قاعدة بحرية في سنة ٨٨٢ أو ٨٨٣ م، في مونت جارجليانو Monte Garigliano.



وترتب على قوة بيزنطة البحرية في تلك الجهات، أن تقرر عقد هدنة في سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥ م بين المسلمين في صقلية وبين البيزنطيين. وفي نفس السنة استطاعت بيزنطة أن تنزل في جنوب إيطاليا جيشا ضخما بقيادة نقفور فوقاسNicephor Phocas. وتقرر إنشاء ثيمي كالابريا وأبوليا، بينما اعترفت بنفنتو بسلطة بيزنطة عليها، وجرت على نهجها سائر مدن كمبانيا؛ فأضحت بيزنطة بهذا، وسط الإمارات الإيطالية الصغيرة المتعادية؛ العامل الوحيد الذى يمثل القوة والاستقرار، وهذه الأمور تفسر ما اتخذته البابوية من اتجاه طيب نحو بيزنطة في الأمور الكنسية آنذاك.

أما عن العلاقة بين البيزنطيين والمسلمين في الشرق بعد ذلك، فالواقع أنه تهيأ لباسيل الأول ٢٥٣-٢٧٣هـ/ ٨٦٧-٨٨٦م من الأحوال المواتية لقتال المسلمين ما لم يتهيأ لإمبراطور قبله، فإلى جانب ما يربطه من علاقات سلمية مع جيرانه المسيحيين(أرمينية، روسيا وبلغاريا، والبندقية والإمبراطورية الغربية)، سادت الفتن الداخلية في أنحاء العالم الإسلامي، فازداد نفوذ الترك في دار الخلافة العباسية ببغداد، واستقل أحمد بن طولون بمصر سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، ونشبت الحرب الداخلية في شمال إفريقيا، واشتد الصراع بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس، ومع ذلك لم يتحقق للإمبراطورية البيزنطية كل ما تصبو إليه من آمال.

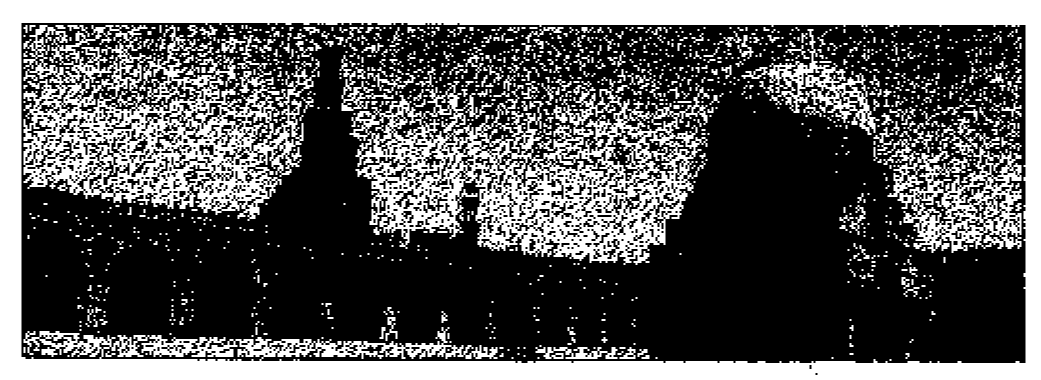
والمعروف أن البيالصة ازداد نفوذهم في الشرق، وانتشروا في سائر أنحاء آسيا الصغرى. وفي سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م توجهت حملة بقيادة كريستوفر، صهر الإمبراطور باسيل والقائد العام للجيش، لقتالهم؛ فأحرزت انتصارا حاسما على البيالصة، ودمرت معقلهم في تفريك، وخربت ما كان لهم من استحكامات عديدة، وبددت قواتهم في معركة حامية، هلك فيها زعيم البيالصة المدعو خريسوخير Chrysocherius. وترتب على هذا الانتصار أن واصل البيزنطيون الزحف نحو الشرق. فاندفع باسيل بجيشه، حتى بلغ إقليم الفرات، فاستولى سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م؛ على زبطرة وسميساط، ومع ذلك تعرض باسيل لهزيمة ساحقة، حين حاول الاستيلاء على حصن ملطية الذى يعتبر من المعاقل الهامة. وعلى الرغم من أن باسيل اكتفى بهذا الانتصار الجزئي في هذه الحملة، وفيما تلاها من الحملات التي توجهت إلى أقاليم الفرات والى أطراف طوروس، فإن عمله يعتبر بداية مرحلة جديدة من مراحل الزحف والتقدم المنتظم، التي قامت به الإمبراطورية البيزنطية على الأطراف الشرقية. يضاف إلى ذلك أن ما أصاب الدولة الإسلامية من الضعف، أسهم في نمو أرمينية، إذ اعترف بسلطة آشوط الأول وقرر اعتباره ملكا: كل من الخليفة، سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥ م، والإمبراطور البيزنطي سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م؛ فكان ذلك الاعتراف بداية مرحلة من مراحل توسع أرمينية زمن الأسرة البجراطية.



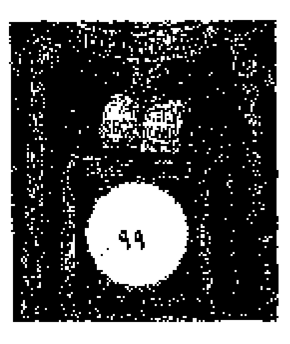
لم تكن بيزنطة من القوة ما تستطيع بها مواجهة المسلمين في الشرق والغرب. والمعروف أن بيزنطة ارتبطت بأرمينية، زمن باسيل المقدوني، بنوع من التحالف والعلاقات الودية، منذ زمن ملكها أشوط الأول، وصارت أرمينيا تعتبر دولة حاجزة ضد المسلمين في الشرق. غير أن أرمينيه لا زالت تعترف للمسلمين بالسيادة. ومن الدليل على ذلك، ما كانت تدفعه من جزية سنوية للخليفة العباسي، وضرورة الحصول على موافقة الخليفة عند تنصيب ملوكهم. وفي سبيل المحافظة على السلام، حرص أشوط على أن يعقد محالفات مع سائر الملوك والأمراء المجاورين. فتوجه إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور ليو الفيلسوف Leo VI (ليو السادس٢٧٣-٣٠٠هـ/ ٨٨٦-٩١٢م)، الذي قيل عنه، أنه ينحدر من أصل أرمني. ووقع ليو السادس والملك أشوط معاهدة سياسية وتجارية. وأمد الملك أشوط الإمبراطورية البيزنطية بكتيبة أرمينية، تساندها في الحرب ضد البلغار.

وما كاد أشوط يقضي نحبه وتولى مكانه ابنه سمباد الأول Sambat I (٨٩٢-٩١٤)، حتى نشبت الحرب الداخلية في البلاد، وانحاز كثير من الأمراء، إلى جانب المسلمين في أذربيجان، الذين يكرهون أرمينية، وتطلع سمباد إلى المساعدة الخارجية من قبل البيزنطيين. على أن أرمينية تعرضت لهاجمات المسلمين المستمرة، ولم يستطع الإمبراطور البيزنطي أن ينهض لمساعدة أرمينية. وحينما توجه ليو السادس على رأس حملة لتقديم المساعدة للأرمن، مات قبل أن تصل إليهم النجدة، ولم تلبث أرمينية أن خضعت لحكم المسلمين سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م.

وعلى الرغم مما حدث من نشوب خلاف وشقاق بين البيزنطيين؛ بسبب مشكلة زيجات الإمبراطور ليو السادس الأربع، أصبح النضال بين البيزنطيين والمسلمين شاقا ومضنيا. ففي الأربع عشرة سنة الأولى من حكم ليو السادس، من سنة ٨٨٦ إلى سنة ٩٠٠ م.تعرض البيزنطيون



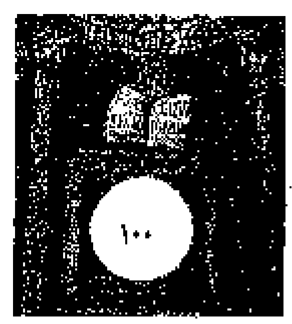
مسجد أحمد بن طولون / مصر



لهزائم عديدة في الشرق عند أبواب قيليقية، وفي غرب قيليقية، حيث أدى انتصار المسلمين إلى أن يزحفوا على امتداد الساحل، وأن يتوغلوا في جوف آسيا الصغرى. وما حل بالبيزنطيين من الهزيمة براً، وما تعرضوا له من الهزيمة بحراً سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م عند Raghib تجاه شاطئ آسيا الصغرى، أجبر الحكومة البيزنطية على أن تستدعي من إيطاليا قائدها الشجاع نقفور فوقاس. فتقدم إلى آسيا الصغرى سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م. وما أحرزه نقفور من انتصار في أذنه سنة ٩٠٠م لم يترتب عليه منع إغارات المسلمين ووقف هجماتهم.

أما عن الوضع بين القوتين البيزنطية والإسلامية في إيطاليا وصقلية فقد أخذت الأمور في صقلية تزداد سوءا، سنة بعد سنة، فعلى الرغم من الجهود التي بذلها باسيل الأول، لتوطيد النفوذ البيزنطي في جنوب إيطاليا، وإفادته من التزام المسلمين بصقلية الهدوء، في توجيه البحرية البيزنطية لمواصلة نشاطها في البحر التيراني، فإن هذا الهدوء لم يكن إلا ظاهرياً. إذا أعقب وفاة باسيل سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م، أن عاد المسلمون بصقلية إلى الهجوم فأغاروا في سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م على كالابريا (قلورية) وأقلعت قوات بحرية بيزنطية، نحو الغرب إلى ريجيو(ريو)، وإلى بوغاز مسينا، وبالقرب من Milazzo، تجاه الساحل الشمالي لجزيرة صقلية، التقت بأسطول إسلامي ضخم، فحلت الهزيمة بالقوات البيزنطية، وتعرض الأسطول البيزنطي للتدمير. وتقرر سنة ٨٩٥م/ ٢٨٢هـ، عقد هدنة بين الفريقين، وبذلك فقدت بيزنطة كل ما لها من سلطان على مياه صقلية وغرب إيطاليا.

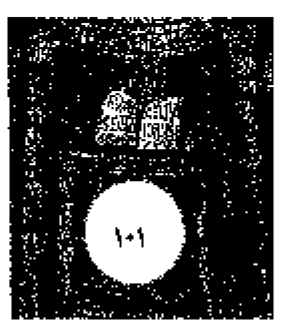
واشتهرت السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادي، بما أصاب الدولة البيزنطية من الهزائم، إذ استولى أبو العباس إبراهيم بن الأغلب، في سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١م على ريجيو في كالابريا، بينما قاد إبراهيم بن الأغلب، الذي تنازل لابنه عن حكم أفريقية، حملة ضخمة سارت براً وبحراً في سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، من بالرمو لمهاجمة آخر ما تبقى في صقلية من الأملاك في يد البيزنطيين، التي لم تتعد مدينة تاورمينا(طبرمين) وما يجاورها، والتي لم تلبث إن سقطت في يد المسلمين. ثم واصل إبراهيم بن الأغلب المسير إلى كالابريا، غير أن موته المفاجئ في كوسنزا Cosenza، أنقذ إيطاليا من المصير الذي تعرضت له تاورمينا، إذ أن الجيش الإسلامي عاد إلى صقلية، وعلى الرغم من أن بيزنطة لا زالت تملك بعض المواضع في صقلية، فإن هذه المواضع لم يكن لها أهمية فيما بعد، في تاريخ بيزنطة. فمنذ سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، ما جرى من الحوادث بصقلية لم يكن لها أثر في توجيه الأمور السياسية في بيزنطة. وما سار عليه ليو السادس في سياسته مع المسلمين في الشرق، لا ترتبط مطلقاً بعلاقاته مع المسلمين في صقلية.



وقد اشتهرت أيضا السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادي، بما وقع من حوادث كبيرة الأهمية. إذ إن المسلمين في الشرق لم يسيطروا فحسب على البحر المتوسط، بل بسطوا سلطانهم على بحر إيجه، الذي تحيط به الممتلكات البيزنطية. فجزر بحر الأرخبيل، وساحل البيلوبونيز، وتساليا، تعرضت باستمرار لغارات المسلمين المخربة. واشترك عادة الأسطولان الإسلاميان، في الشام وكريت، في هذه الغارات، ففي سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢ م، أغار الأسطول الإسلامي على جزائر بحر إيجه، وأنزل الدمار بمدينة ديمتريوس Demetrius الواقعة على ساحل تساليا، والتي اشتهرت بكثرة عدد سكانها ووفرة ثروتها. وفي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م قام أسطول إسلامي آخر بقيادة ليو الطرابلسي Leo of Tripolii أو كما يطلق عليه البعض "ليو غلام زرافة"، وهو يوناني اعتنق الإسلام، بالهجوم على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، وفي شهر يوليه من هذه السنة استولى على مدينة أطاليا Attalia الهامة. ثم عزم ليو على أن يقصد القسطنطينية ليستولى عليها، فاجتاز فعلا الدردنيل إلى بحر مرمرة واستولى على أبيدوس، التي تعتبر الميناء الرئيسي للسفن عند مضيها إلى القسطنطينية، حيث يقع بها الديوان (الجمرك)، غير أن ليو لم يلبث أن ارتحل فجأة، واستدار مع شبه جزيرة خلقيديقا Chalcidice وانقض على مدينة سالونيك التي اشتهرت بنشاطها التجاري والثقافي، والتي تلي القسطنطينية في الأهمية والثروة، وانحاز إلى أسطوله سفن إسلامية من كريت، واستخدم في هذا الهجوم قاذفات النفط، فأحرز انتصارا حاسما، ووقع في يده من السبي نحو ٢٢ ألفا من الذكور والإناث، فباعهم في أسواق الرقيق في الخندق وطرابلس، فضلا عن الغنائم.

وما أصاب الدولة البيزنطية من ضربات قاصمة، ردها إلى صوابها، فعملت على إقامة استحكامات قوية في سالونيك وأضاليا، واتخذت من التدابير الفعالة، ما يزيد في قوة الأسطول. ولم تلبث هذه القوة الجديدة أن ظهرت آثارها، إذ استطاع الوزير هيميريوس Himerius: أن يحرز في سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م انتصارا باهرا على المسلمين. وفي سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، نزل بجنده في جزيرة قبرص، ومن ثم تحول لمهاجمة ساحل الشام، فاقتحم اللاذقية.

وقاد هيميريوس سنة ٢٩٩هـ/ ٩١١م أكبر حملة بحرية لمهاجمة جزيرة كريت الإسلامية، إذ تألفت من ٧ آلاف فارس، و ٣٤ ألف مقاتل بحري، وخمسة آلاف من المردة، وسبعمائة مرتزق روسي، على أن الأسطول البيزنطي انسحب بعد قتال فاشل، استمر طويلا، دون جدوى، وفي أثناء عودته هاجمه أسطول إسلامي بقيادة ليو الطرابلسي ودميان، اليوناني المسلم، أمير صور، وقائد الأسطول الشامي، وذلك تجاه جزيرة خيوس Chios، فتعرض هيميريوس لهزيمة ساحقة،

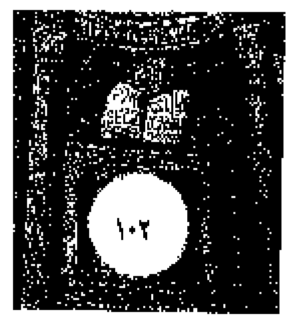


وبذلك أخفقت الحملة الكبيرة، وما بذلته الإمبراطورية من جهود حربية ومالية، تجاوزت الحدود، لم تؤد إلى نتائج إيجابية. ولما عاد نيميريوس إلى القسطنطينية بعد وفاة ليو السادس، تقرر إنزاله بالدير.

ظلت الإمبراطورية البيزنطية حتى سنة ٣١٥هـ/ ٩٢٧م منصرفة إلى النضال ضد سيميون البلغارى Symeon. أما فى الشرق، فإن ما بذلته الإمبراطورية من نشاط، اقتصر على اتخاذ تدابير دفاعية. فلجأت إلى السياسة فى الإفادة من التحالف مع أرمينيا، والمحافظة على ما بين بيزنطة والدولة الإسلامية، من السلام والهدوء. غير أن بيزنطة ما كادت تقضى على الخطر البلغارى، حتى شرعت فى أن تتخذ خطة الهجوم فى الشرق. وتولى تحقيق هذه الخطة القائد الشهير يوحنا كوركواس. وأفاد كوركواس من الأحوال السيئة التى تعرضت لها الدولة العباسية وقتذاك. إذ إن القرامطة هددوا العراق، بل بغداد ذاتها، ونشبت ثورات القادة والأمراء. وما حدث فى دار الخلافة من الفتن، منع جانبا كبيرا من الجيش الإسلامى من القيام بأى مجهود حربى.

وقد وقع عبء مقاومة الروم بدءا منذ ذلك الوقت على أكتاف الأسرة الحمدانية، التى أسست لها إمارة فى شمال بلاد الشام. ويمكن القول أنه منذ ذلك الوقت الذى سرت فيه روح الشباب فى بدن الدولة البيزنطية بفضل جهود الأباطرة المقدونيين الذين استغلوا ضعف وتفكك الخلافة العباسية فى عصرها الثانى، بل وظهور الخلافة الفاطمية بعد ذلك ومنازعتها للخلافة العباسية فى بغداد، ومدوا النفوذ البيزنطى فى أراضى الدولة الإسلامية حتى وصل أحد الأباطرة آنذاك وهو يوحنا تزيمسكس ٣٩٥هـ-٣٦٦هـ/ ٩٦٩-٩٧٦م إلى بلاد ما بين النهرين وبيت المقدس، لم يكن بمقدور الخلفاء العباسيين أن يذودوا عن أراضى الدولة الإسلامية لولا وجود سيف الدولة الحمدانى الذى دان بالسلطان للخليفة العباسى. واستطاع الحمدانيون أن يدرءوا الخطر البيزنطى عن أطراف الخلافة العباسية فى رحلة طويلة من النضال والجهاد فى سبيل الله.

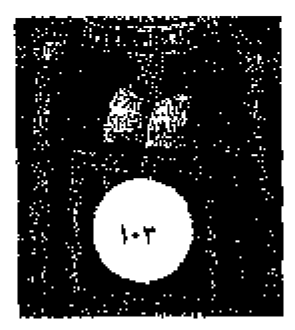
وبعد أن عبثت الرياح بأركان الدولة الحمدانية وأوشكت على الرحيل من عالم العصور الوسطى حمل الأتراك السلاجقة المسلمين راية الجهاد ضد البيزنطيين حتى اضطر الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus ٤٧٤-٥١٢هـ/ ١٠٨١-١١١٨م إلى طلب العون والمدد العسكرى من الغرب الأوربى، حتى يستطيع الصمود أمام الأتراك السلاجقة. ومن هنا تبدأ رحلة جديدة فى الصراع بين المسلمين والبيزنطيين بعد دخول قوى جديدة فى الصراع، ألا وهى القوى الصليبية، بعدما وطأت أقدامهم أرض الشرق الإسلامى بمجىء الحملة الصليبية الأولى.





أولاً: المراجع العربية:

* إبراهيم العدوى: الأمويون والبيزنطيون، القاهرة، ١٩٦٣.
* إبراهيم العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة: ١٩٥٨.
* أحمد رمضان، تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط، القاهرة، د.ت.
* أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠.
* أحمد عبد الكريم سليمان، المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط، جـ١، القاهرة، ١٩٨٢.
* أسد رستم، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، جزءان، بيروت، ١٩٥٥.
* حامد زيان، الأسرى المسلمون فى بلاد الروم، القاهرة، ١٩٨٩.
* حسنين ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة: ١٩٨٥.
* سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة، ١٩٦٧.
* السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٠.
* طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجى، جـ١، البيزنطيون والعالم الإسلامى، القاهرة، ٢٠٠٣.
* طارق منصور، النار الإغريقية: قراءة جديدة فى ضوء المصادر البيزنطية والإسلامية»، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، عدد ٤ (٢٠٠٤ - ٢٠٠٥).
* عبد الرحمن أحمد سالم، المسلمون والروم فى عصر النبوة، القاهرة، ١٩٩٧.
* علية عبد السميع الجنزورى، الثغور البرية الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٩.
* علية عبد السميع الجنزورى، هجمات الروم على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨٥.
* فازيليف، أ.: العرب والروم، ترجمة/ محمد عبد الهادى شعيرة، القاهرة: د.ت.
* فتحى عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى، جـ١: القاهرة، ١٩٦٦.
* ليلى عبد الجواد إسماعيل، الدولة فى عصر الإمبراطور هرقل، القاهرة، ١٩٨٥.
* ليلى عبد الجواد إسماعيل، علاقة دولة الروم بمصر: عصرى الطولونيين والإخشيديين، القاهرة، ١٩٨٨.



* وديع فتحي عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي ٧٤١ - ٨٢٠م/ ١٢٤ - ٢٠٥هـ، الإسكندرية، ١٩٩٠.

* وسام عبد العزيز فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، الإسكندرية، ١٩٨١.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

-Antoniadis-Bibicou, H., Études d'histoire maritime de Byzance, Paris, 1966.

-Ahrweiler, H., Byzance et la mer, Paris, 1966.

-Browning, R., Byzantium and Bulgaria, (Oxford, 1980).

-Bury, J. B., The Imperial Administrative System in the Ninth Century, (London, 1911).

-Bury, J.B., " Mutasim march through Cappadocia in A.D. 838", JHS, 29(1909), pp. 120-129.

-Canard, M., " Les expéditions arabes contre Constantinople", JA, 208(1926), pp. 61-121.

-Christides, V., " How Chinese Naval Technology Passed to the Mediterranean Via the Arabs: Once Again the Single Rudder", *ΤΡΟΠΟΣ*, 5(1993), pp. 93-100.

-Constantin Porphyrogénète, Le livre des cérémonies, trad. fran. et comm. Albert Vogt, tome I, Paris, 1935; tome II, (Paris, 1939).

-Constantine Porphyrogenitus, De Thematibus, ed. I. Bekker, CSHB, (Bonnae, 1840).

-Constantine Porphyrogenitus, Three Treatises on Imperial Military Expeditions, text, Eng. trans & Com. J. F. Haldon, CFHB, vol. XXVIII, (Wien, 1990).

-Finlay, G., History of the Byzantine Empire 716-1057 AD, (New York, 1913).

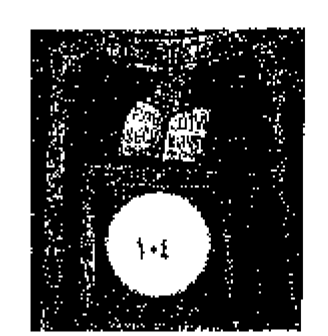
-Haldon, J., Byzantium in the Seventh Century, The transformation of culture, Cambridge, 1990.

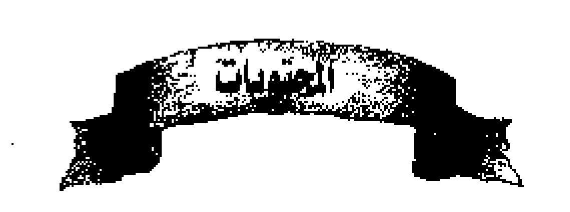
-Incerti Scriptoris Byzantini Saeculi X. Liber de Re Militari, ed. R. Vari, (Lipsiae, 1901).

Kaegi, W. E., Byzantine Military Unrest 471-843, Amsterdam, 1981.

--Nicephor Phocas, De Velitatione Bellica, ed.B.G.Niebuhrii, CSHB, (Bonnae, 1828).

-Whittow, M., The Making of Orthodox Byzantium 600-1025, (Lonon, 1996).


١٠٤


المحتويات